

# مركز جيل البحث العلمي

مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية



مجلة علمية دولية محكمة تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي

Lebanon – Tripoli: Branche P.O. Box Abou Samra - [www.jilrc.com](http://www.jilrc.com) - [social@journals.jilrc.com](mailto:social@journals.jilrc.com)



ISSN 2311-5181 DOI Prefix:10.33685/1316 العام الحادي عشر - العدد 106 - مارس 2024



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### التعريف بالمجلة:

مجلة علمية دولية محكمة ومفهرسة عالميا تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي تعنى بالدراسات الإنسانية والاجتماعية، بإشراف هيئة تحرير مشكلة من أساتذة وباحثين وهيئة علمية تتألف من نخبة من الباحثين وهيئة تحكيم تتشكل دوريا في كل عدد.

### اهتمامات المجلة وأبعادها:

مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية عبارة عن مجلة متعددة التخصصات، تستهدف نشر المقالات ذات القيمة العلمية العالية في مختلف مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية.

تعرض المجلة جميع مقالاتها للعموم عبر مواقع مركز جيل البحث العلمي، بهدف المساهمة في إثراء موضوعات البحث العلمي.

### مجالات النشر بالمجلة:

تنشر المجلة الأبحاث في المجالات التالية: علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا، علم الاجتماع، الفلسفة التاريخ، علم المكتبات والتوثيق، علوم الإعلام والاتصال، علم الآثار.

تنشر مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية البحوث العلمية الأصيلة للباحثين في هذه التخصصات كافة مكتوبة باللغة العربية أو الفرنسية أو الإنجليزية.

### هيئة التحرير:

- أ.د. سامية ابرييم (جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر)  
 أ.د. عاصم شحادة علي (الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا)  
 أ.د. علي صباغ (جامعة قسنطينة 2، الجزائر)  
 د. حنان شعشوع محمد الشّهري (جامعة الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية)  
 د. صونيا عيواج (جامعة باتنة 1، الجزائر)  
 د. يزيد شويعل (جامعة المدية، الجزائر)  
 د. يوسف جاب الله (جامعة المدية، الجزائر)

### رئيس اللجنة العلمية: أ.د. سامية شينار (جامعة باتنة 1، الجزائر)

### ضبط ومراجعة: أ. رؤوف أحمد المل (الجامعة اللبنانية)

### اللجنة العلمية:

- أ.د. أبكر عبد البنات آدم (جامعة بحري، السودان)  
 أ.د. بالموشي عبد الرزاق (جامعة الوادي، الجزائر)  
 د. بن حجوبة حميد (جامعة مستغانم، الجزائر)  
 د. زين العابدين عبد الحفيظ (جامعة خميس مليانة، الجزائر)  
 د. عبد الله ملوكي (جامعة سطيف 2، الجزائر)  
 د. علة المختار (جامعة الجلفة، الجزائر)  
 د. محمد البشير رازقي (كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس)  
 د. نجوى نايف عبد النبي شكوكاني (الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا)  
 د. هاني إسماعيل رمضان (جامعة جيرسون، تركيا)

### أعضاء اللجنة التحكيمية الاستشارية لهذا العدد:

- أ.د. حسان سخسوخ (جامعة أم البواقي، الجزائر)  
 أ.د. سامية شينار (جامعة باتنة 1، الجزائر)  
 أ.د. مسعودي طاهر (جامعة الجلفة، الجزائر)  
 أ.د. موسى إبراهيم منصور أبو دقة (جامعة الأقصى، فلسطين)  
 د. إخلص محمد عبد الرحمن (جامعة الجزيرة، السودان)  
 د. إبراهيم إسماعيل عبده محمد (جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية)  
 د. بلمداني نوال (جامعة معسكر، الجزائر)  
 د. بن حجوبة حميد (جامعة مستغانم، الجزائر)  
 د. حسن زربية (جامعة قفصة، تونس)  
 د. سعيد علي (جامعة نغاونديري، الكاميرون)  
 د. علي سلطاني العاتري (جامعة تبسة، الجزائر)  
 د. مزاراة نعيمة (جامعة أبو القاسم سعد الله، الجزائر 2)

# شروط النشر



تقبل المجلة الأبحاث والمقالات التي تلتزم الموضوعية والمنهجية، وتتوافر فيها الأصالة العلمية والدقة والجدية وتحترم قواعد النشر التالية :

- أن يكون البحث المقدم ضمن الموضوعات التي تعنى المجلة بنشرها.
- ألا يكون البحث قد نشر أو قدم للنشر لأي مجلة، أو مؤتمر في الوقت نفسه، ويتحمل الباحث كامل المسؤولية في حال اكتشاف بأن مساهمته منشورة أو معروضة للنشر.
- أن تحتوي الصفحة الأولى من البحث على:
  - عنوان البحث باللغة العربية والإنجليزية.
  - اسم الباحث ودرجته العلمية، والجامعة التي ينتمي إليها، باللغة العربية والإنجليزية.
  - البريد الإلكتروني للباحث.
  - ملخص للدراسة في حدود 150 كلمة وبحجم خط 12، باللغة العربية والإنجليزية.
  - الكلمات المفتاحية بعد الملخص.
- أن تكون البحوث المقدمة بإحدى اللغات التالية: العربية، الفرنسية والإنجليزية.
- أن لا يزيد عدد صفحات البحث على (20) صفحة بما في ذلك الأشكال والرسومات والمراجع والجداول والملاحق.
- أن يكون البحث خالياً من الأخطاء اللغوية والنحوية والإملائية.
- أن يلتزم الباحث بالخطوط وأحجامها على النحو الآتي:
  - اللغة العربية: نوع الخط (Traditional Arabic) وحجم الخط (16) في المتن، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (12).
  - اللغة الأجنبية: نوع الخط ( Times New Roman ) وحجم الخط (14) في المتن، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (10).
  - تكتب العناوين الرئيسية والفرعية للفقرات بحجم 16 نقطة مثلها مثل النص الرئيسي لكن مع تضخيم الخط.
- أن تكتب الحواشي بشكل نظامي حسب شروط برنامج Microsoft Word في نهاية كل صفحة.
- أن يرفق صاحب البحث تعريفا مختصرا بنفسه ونشاطه العلمي والثقافي.
- عند إرسال الباحث لمشاركته عبر البريد الإلكتروني، سيستقبل مباشرة رسالة إشعار بذلك .
- تخضع كل الأبحاث المقدمة للمجلة للقراءة والتحكيم من قبل لجنة مختصة ويلقى البحث القبول النهائي بعد أن يجري الباحث التعديلات التي يطلبها المحكمون.
- لا تلتزم المجلة بنشر كل ما يرسل إليها .

**ترسل المساهمات بصيغة الكترونية حصراً على عنوان المجلة:**

**social@journals.jilrc.com**

## الفهرس

### الصفحة

- 7 • الافتتاحية
- 9 • مكاسبُ المواطن في دنياه من تحكيم شرع الله في دولته، ظلال سعده (جامعة أنقرة للعلوم الاجتماعية، تركيا)
- 35 • عملية الترجمة؛ منطقتها وأسسها من منظور تأويلي الحسين محمد ال مهديه (جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية)
- 51 • الحق في إنجاب طفل معاق بين المنظور الديني والمنظور الحقوقي والقهر والوصم الاجتماعي، سعيدة الزين (جامعة القاضي عياض، المغرب)
- 67 • تراجم المدرسين وصلتها ببرنامج التعليم الديني بتونس: قيام الدولة الحسينية نموذجاً، صدق السلامي (مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان- جامعة الزيتونة، تونس)
- 87 • الخدمات الصحية: المفهوم والخصائص، رشيد بونا (جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب)

## الافتتاحية

7

اللهم إنا نحمدك حمد الشاكرين، ونستعينك ونستهديك سواء السبل، ونستلهمك التوفيق في الأعمال، ونعوذ بك من الفشل والكسل والزلل، ونرجو منك التثبيت في المبدأ الحسن، ونسألك أن تصلي على من بعثته هدى ورحمة للعالمين، سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، أما بعد:

يسعدنا أن نضع بين أياديكم أعزاءنا القراء الكرام العدد السادس بعد المئة (106) من مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية التي يصدرها مركز جيل البحث العلمي، سائلين الله تعالى أن ينفع بما فيه من بحوث علمية متنوّعة، راجين أن يجد فيه القراء ما يفيدهم وينفعهم، آمليين استمرار شُعلة المجلة مرافقة للباحثين لتضيء دربهم في مجال البحث العلمي.

رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (آل عمران: 8)

**والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل،،،**

**رئيس التحرير / د. جمال بلبكاي**

**تخلي أسرة تحرير المجلة مسؤوليتها عن أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية  
لا تعبر الآراء الواردة في هذا العدد بالضرورة عن رأي إدارة المركز  
© جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي**

## مكاسبُ المواطن في دنياه من تحكيم شرع الله في دولته

## The gains of a citizen as a result of implementing Sharia Islamic in his country

د. ظلال سعده/جامعة أنقرة للعلوم الاجتماعية، تركيا

Dr. Zelal Saada / Ankara University of Social Sciences, Turkey

**Abstract:**

The governance of society based on the laws of Allah provides its citizens with the meaning of human dignity. They enjoy the right to live in a society of freedom where human civilization on the wings of consultation and justice takes place. They drink from the fountain of generosity and give charity with a smile and happiness. They enjoy health and well-being, feed and eat by the sweat of their brows and give charity from the good deeds of their work. They are safe from harm from others and do not cause harm to others. There is no room for fraud and monopoly, or for taking the wealth of people unjustly or with usury. There is no orphan or widow without a family, no patient without a visitor, no lonely without a friend, and no family without a provider. Mosques, clubs, and sports fields adorn the community. Irrigation canals of fresh water cross it, and tall green trees surround it. Peace prevails, and the heart is refreshed by the remembrance of Allah Almighty, as is the livelihood and food from lawful sustenance. This research aims to guide minds to understand the correct meaning of the phrase "Islamic rule", and to remove the fear instilled by this phrase. The challenge encountered while writing this research was the method of writing in a way that convinces the reader of the original idea of the research and how to harness the sub-ideas to serve it. The methodology adopted in this research is the induction of books of interpretation, hadith books, and the biography of the Prophet, and the deduction of evidence from the verses of the Qur'an for the proposed ideas.

**Key Words:** Islamic society- civilization- freedom- right to live- peace.

## ملخص:

الحكم بما أنزل الله في المجتمعات يرفد المواطن فيها بمعاني الكرامة الإنسانية، ويتمتع فيها بحق الحياة، ويمتطي بها على فرس الحرية لينطلق إلى آفاق الحضارة الإنسانية على أجنحة الشورى والعدالة، يشرب من نبع السماحة ويتصدق بالابتسام والغبطة، ويتمتع بالصحة والعافية، يأكل من عرق جبينه، ويتصدق من طيبات عمله، يأمن أذى الغير، ولا يتسبب بضرر الغير، لا مجال فيه للغش والاحتكار، ولا لأكل أموال الناس بالباطل والربا، لا يتيم فيه ولا أرملة بدون عائل، ولا مريضاً بدون زائر، ولا وحيداً بدون صديق، ولا عائلاً بدون مُعيل، تزينه المساجد والأندية والملاعب، تخترقه السواقي من المياه العذبة، وتحيط به الأشجار الخضراء العالية، يعمّه السلام، ويطيب قلبه بالذكر العميم، كما يطيب عيشه ومطعمه من الرزق الحلال. يهدف هذا البحث إلى توجيه العقول إلى فهم معنى عبارة "الحكم الإسلامي" فهماً صحيحاً، ونزع الخوف المزروع من هذه العبارة، أما المنهجية المتبعة في هذا البحث فهو استقراء كتب التفسير والكتب الحديثية والسيرة النبوية.

الكلمات المفتاحية: الحضارة- الحرية- حق الحياة- السلام- المجتمع الإسلامي.

## مقدمة:

هناك جدل واسع بين النخب الفكرية والسياسية في المجتمعات الإسلامية، تحددها اتجاهات فكرية متعددة لرسم الطريقة السليمة والصحيحة؛ للنهوض بهذه المجتمعات من وحل التخلف والتبعية للغرب؛ لأجل الوصول بهذه المجتمعات إلى مصاف الأمم المتقدمة والصعود على المسرح الدولي بالقوة الحضارية المتغلبة على القوى الاستعمارية العالمية التي تستفحل في نهب خيرات البلدان بالسيطرة السياسية والاقتصادية والثقافية على مقدراتها وخيراتها وفكرها، وقد وجدت أنه من الضروري طرح هذا الموضوع على المسلمين خاصة وعلى العالم المتمدين عامة؛ بسبب ما يعانيه البعض من أمراضٍ عصبيةٍ أو فكريةٍ ونفسيةٍ، تتجلى بحالات الخوف والهلع وحالات نفسية جنونية يصعب وصفها عند سماع عبارة "حكم إسلامي".

يهدف هذا البحث إلى توجيه العقول إلى فهم معنى عبارة "حكم إسلامي" فهماً صحيحاً، ونزع الخوف المزروع

من هذه العبارة.

1- الكرامة الإنسانية: التي تليق بما وهبه الله له منها فقد قال تعالى جلّ ذكره {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} (1) بحسن الهيئة وجمال الشكل وحسن الصورة وإطلاق اليدين والأصابع لاستخدامهما في الأكل والشرب والإمساك بالأشياء الدقيقة، وهذه الخاصية لها انعكاسات حضارية تمس المجتمعات الإنسانية، وإطلاق العقول من أغلالها وتمجيدها والثناء عليها بعمل الفكر ونبضات القلب؛ لتترفع على عروش الحكمة وتصعد في معارج الكمال، وأكرمه بطلاقة اللسان وإتقان اللغة والقدرة على التعبير في انسجام كامل بين الفكر وحركة اللسان وضربات القلب، فيتكلم بأسرار الحياة ومعاجم الكون، ويجمع ما شاء الله له من كنوز العلم وصفائير المعرفة. وقد سخر الله سائر الخلق لخدمة الإنسان، يقول تعالى {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ} إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (2)، ويقول جلّ ذكره: {وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (3)، هذا التسخير الرباني لأجل الخلود للنوم والراحة أو الابتعاث للعمل والجهد ولحساب الزمن والسنين ولنضج الثمار والزرع ولأجل معرفة الجهات وتحديد الطرقات الموصلة للهدف. ومن تمام نعمته على الإنسان تسخير الأرض له ساكنة هادئة سهلة المنال والتجوال، سهلة الزراعة والعطاء، فيها الأنهار والعيون والبحيرات العذبة، ومواضع الزروع والثمار ما يمكن الإنسان من الحياة الطيبة الرضية قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهَا وَإِلَيْهَا النُّشُورُ} (4). وسخر لهذا الكائن المخلوق المكرّم الحيوانات وذللها له؛ لأجل إطعامه من طيبات اللحوم وحمليه ومتاعه والقطع به المسافات الطويلة الشاقة {وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ}، كما هداه لصناعة المراكب والسفن لأجل ركوب البحر، ورزقه من طيبات المطاعم والمشارب {وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ} (5).

والإنسان الذي يحمل في طياته مشاعره مظاهر تكريم الله له يشعر بقيمة وجوده على هذه الأرض في تقديره لنفسه وفي تقديره لوجود الآخرين من حوله، ويرفد معنى خلافة الله في أرضه معاني كبرى تُطرب داخله وتملؤه غبطة ومحبة لهذا الخالق الكريم المعطاء، كما تساهم في أن يأخذ دوره الصحيح في إعمار الأرض وبناء الحضارة الإنسانية تحت عنوان {بلدة طيبة ورب غفور} (6). توفير الأسباب الدنيوية لحياة كريمة هو من النهج الإسلامي

(1) سورة الإسراء، آية ٧٠

(2) سورة الجاثية، آية ١٣

(3) سورة النحل، آية ١٢

(4) سورة الملك، آية ١٥

(5) الطبري: محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، (القاهرة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان)، ١٥\٥

(6) سورة سبأ، آية ١٥

التطبيقي، يزينها الجهد والعمل فقد عمل صلى الله عليه وسلم على تشجيع الأيدي الفنيّة العاملة على العمل ووصف ذلك بالخيرية فقال: «لأن يأخذ أحدكم أحبله فيحتطب على ظهره، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»<sup>(1)</sup>.

وكما قام بتوجيه المسلمين لدوام المحافظة على الصلّة بالله تعالى وتعميق هذه الصلّة، أو النفير الجهادي للمحافظة على سلامة الأوطان، أو إعتاق الرقاب لتمكين الناس من نيل الحرية وجّه أصحاب المهارات إلى تعليم "الأخرق" وهو الذي لا يملك مهارة الصنعة أو يساعده في عمله لعله يكفي نفسه بنفسه ويحافظ على كرامته الإنسانية، فعن أبي ذر، قال: قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان بالله والجهاد في سبيله» قال: قلت: أي الرقاب أفضل؟ قال: «أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنًا» قال: قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «تعين صانعًا أو تصنع لأخرق»<sup>(2)</sup><sup>(3)</sup>.

2- حق الحياة: هو من أقدس الحقوق البشرية على الإطلاق، ومن أؤكد الكليات الخمس الواجب حفظها وحمايتها (حفظ الدين، النفس، العقل، النسل، المال)، والإسلام يحرم تحريمًا مشددًا قتل النفس البشرية بغير حق، وسد كل أبواب الذرائع المؤدية إلى إتلافها وإهلاكها، بإهمالها أو إيلاها أو تعذيبها أو تعريضها إلى الخطر بأي شكل من الأشكال. قال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ}<sup>(4)</sup>، وقال أيضًا: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}<sup>(5)</sup> وقد شاع بين العرب دفن البنات وقتلهنّ فنهى الله سبحانه عن هذا الفعل الإجرامي، وقال جلّ ثناؤه: {وإذا الموءودة سئلت - بأي ذنب قتلت}<sup>(6)</sup> قدّم قيس بن عاصم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله، إني وأدت اثنتي عشرة ابنة لي في الجاهلية - أو ثلاث عشرة - قال: "أعتق عددهن نسماً"، قال: فأعتق عددهن نسماً، فلما كان في العام المقبل جاء بمائة ناقة، فقال: يا رسول الله، هذه صدقة قومي على أثر ما صنعت بالمسلمين. قال علي بن أبي طالب: فكنا نريحها، ونسميها القيسية<sup>(7)</sup>. وقال تعالى: {وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم

(1) محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، الجامع الصحيح، المحقق: د. مصطفى ديب البغا، (دمشق: دار ابن كثير، دار اليمامة، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣ م)، "كتاب الزكاة"، ٤٩ (رقم ١٤٠٢).

(2) الأخرق هو الذي ليس بصانع يقال رجل أخرق وامرأة خرقاء لمن لا صنعة له

(3) البخاري، "كتاب العتق"، ٢ (رقم ٢٣٨٢).

(4) سورة الأنعام آية ١٥١

(5) سورة النساء آية ٩٣

(6) سورة التكويز، آية ٨

(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٣٣٥

شركاؤهم<sup>(1)</sup> قام سَدَنَةُ الآلهة وَخَدَمَهَا بِالْتَزِينِ لِلْمَشْرِكِينَ قتل أولادهم متذرعين بعدد من الأسباب كالبعد عن الفقر أو اتقاء العار بقتل البنات أو التقرب إلى الآلهة بالذود وسفك الدماء.<sup>(2)</sup>

ويروي الشافعي أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «من قتل نفسه بشيء من الدنيا عذب به يوم القيامة» وروي «أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مر بقتيل فقال من به فلم يذكر له أحد فغضب ثم قال والذي نفسي بيده لو اشترك فيه أهل السماء وأهل الأرض لأكهم الله في النار»<sup>(3)</sup>، وروي أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «قتل المؤمن يعدل عند الله زوال الدنيا»، وروي أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «من أعان على قتل امرئ مسلم بشطر كلمة لقي الله مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله» مع التشديد في القتل<sup>(4)</sup>.

وقال البخاري: سمعت سعيد بن جبير قال: آية اختلف فيها أهل الكوفة، فرحلت فيها إلى ابن عباس فسألته عنها، فقال: نزلت هذه الآية: {ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم} هي آخر ما نزل، وما نسخها شيء<sup>(5)</sup>

3- الحرية: في ظل نظام عالمي ظالم يملأه الاستعباد والاستبداد جاء الإسلام ليحرر الإنسان من العبودية للأشياء وللأهواء، أو العبودية للطبيعة أو للأفلاك وللإنسان لكي يكون عبداً لله وحده؛ وفي هذا السياق أطلَّ الخليفة الثاني للمسلمين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وأرضاه على العالم، وأطلق خطابه المشهور بقوله: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً"<sup>(6)</sup>. والحرية من الفطرة البشرية تولد مع الإنسان منذ نعومة أظفاره، فهي ليست عطاءً أو هبةً من بشر وإنما هي قيمة ملكة الله إياها ككنزٍ من كنور الحياة وسرٍّ من أسرار جمالها، ومن يصادرها منه فهو ظالم.

وبهذه الثقافة تمكن المسلمون من التصدي لأباطرة الشرِّ وأئمة الاستكبار العالمي، وتمكنوا من هزيمتهم في مواقع مشهورة كموقعة عين جالوت، وموقعة حطين، وموقعة ملاذ كرد، وموقعة قلعة جناق، وسطروا انتصارات رائعة سجّلها التاريخ لهم كمفخرة واعتزاز. وبها قاموا بالثورات على الاستعمار الغربي، وخاضوا

(1) سورة الأنعام، آية ١٣٧

(2) أحمد بن مصطفى المراغي، تفسير المراغي، (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م)، ٤٤/٨

(3) محمد بن إدريس الشافعي، الأم، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ٤٦/٦

(4) الشافعي، الأم، ٤٦/٦

(5) البخاري، الجامع الصحيح، "كتاب التفسير"، ٩٦ (رقم ٤٣١٤)

(6) عبد الشافي محمد عبد اللطيف، السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، (القاهرة: دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨هـ)، ٤١٠

المعارك القاسية ضد الاستعمار ليتوجوها بانتصارات ساحقة، كثورة عبد القادر الجزائري، وثورة عبد الكريم الخطابي، وثورة عمر المختار.

وتوعد الله سبحانه وتعالى المتخاذلين في نصرة الحرية، والذين قبلوا بحياة النذل والعبودية واستسلموا للظالمين {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتَمَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا لَكُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا} \* فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا {<sup>(1)</sup> لقد حرك القرآن نفوس المسلمين ونسج منها أرواحاً جبارة تأبى الظلم والذلّة، وأعدّها لقيادة أكبر حركة تحرر فكري وعقدي من جبابرة الأرض والمتوحشين فيها، وذمّ المفلسين الذين يقفون مع الطاغية المستكبر، وذكّرهم بمصيرهم البائس يوم القيامة {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا} \* رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} {<sup>(2)</sup> وفي ظل الحكم الإسلامي لا تقتصر الحرية على حرية العمل {وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} {<sup>(3)</sup> أو حرية التنقل، وهي مُقررة في قوله عز وجل: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ} {<sup>(4)</sup> بل تمتد إلى حرية التفكير والتعبير والصدق بالرأي، ومن تجلياتها ما حدث في معركة بدر قال الحباب بن المنذر: يا رسول الله، أرايت هذا المنزل، أمنزل أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. قال: فإن هذا ليس بمنزل! انطلق بنا إلى أدنى ماء القوم، فإني عالم بها وبقلبها، بها قليب قد عرفت عدوبة مائه، وماء كثير لا ينزح، ثم نبني عليها حوضاً ونقذف فيه الأنية، فنشرب ونقاتل، ونغور {<sup>(5)</sup> ما سواها من القلب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا حباب، أشرت بالرأي! فنهض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ففعل كل ذلك. {<sup>(6)</sup> وحرية الفكر ليست مقصورة على أصحاب العيون الزرقاء والبشرة البيضاء دون العيون الداكنة والبشرة السمراء بل هي عامّة يتساوى فيها جميع الناس بغض النظر عن اللون والحسب والنسب والجنس امتثالاً لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ

(1) سورة النساء آية ٩٧، ٩٨، ٩٩

(2) سورة الأحزاب آية ٦٧، ٦٨

(3) سورة الملك آية ١٥

(4) سورة التوبة آية ١٥١

(5) نغور: نُفسد

(6) محمد بن عمر بن واقد السهبي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله الواقدي، مغازي الواقدي، تحقيق: مارسدن جونس، (بيروت: دار الأعلوي

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ<sup>(1)</sup> فقد كان بلائاً الحبشي صاحب البشارة السوداء مؤذن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو في مصطلحات اليوم يقابل وزيراً للإعلام.<sup>(2)</sup> ومن صور الحرية الشخصية في ظل الحكم الإسلامي حرية التملك والبيع والشراء والهبة والوصية والزواج، فيتصرف كل شخص بما يحقق مصلحته الشخصية ومصلحة المجتمع<sup>(3)</sup>. ولا شك بأن الحرية الشخصية في الإسلام هي من أقدس الحقوق، وتشمل إضافةً إلى كل ما سبق الحرية السياسية وكلها كفلها الإسلام وخطاها خطوات لا تزال تعجز الحضارة الحديثة عن اللحاق بها<sup>(4)</sup>، فالحرية السياسية في الإسلام حرية حقيقية وليست حرية شكلية مرتبطة برأس المال والشركات الغنيّة والمنفعة الفردية الأنانية، بل حرية حقيقية لخدمة الأمة، منبعها المسؤولية الدينية، فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نصيحة المسلمين شرطاً في الدين فقال: «الدين النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».<sup>(5)</sup> وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: "ألا خير في قوم لئسوا بناصحين ولا خير في قوم لا يحبون الناصحين"<sup>(6)</sup> ولا شك أن الحرية التي شرعها الإسلام للفرد ساهمت في توظيف إمكاناته العقلية والمادية، وأدت إلى إقامة حضارة فريدة توطدت أركانها عبر قرون طويلة من الزمن، قال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - عند توليته الخلافة: "إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني" .. إلى أن قال: "لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير في إن لم أسمعها" ويقصد أن إسداء كلمة الحق والجهر بها واجب مفترض على كل مسلم.<sup>(7)</sup> ولا شك أن الحرية في الإسلام مصونة بضوابطها الشرعية التي ترعى الحقوق الفردية بحيث لا تضر بحقوق الجماعة ولا تؤذي مشاعرها، فالعبثية الرجعية التي تؤذي الجماعة في دينها وأخلاقها وما استقرت عليه الأمة من أعراف منسجمة مع الفطرة البشرية ليست من صفات المؤمن كحركات الانحلال الفكري والأخلاقي.

(1) سورة الحجرات أية ١٣

(2) عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله القرشي الأسدي الحميدي المكي، مسند الحميدي، تحقيق: حسن سليم أسد الداراني، (دمشق: دار السقا، ١٩٩٦ م)، ٢٣٦١١.

(3) الدكتور حسن بن محمد سفر، "حقوق الإنسان وحرياته"، مجلة مجمع الفقه الإسلامي، ١٣١١، (٢٠١٥ م)، ٣٠٦.

(4) الدكتور حسن بن محمد سفر، "حقوق الإنسان وحرياته"، ٣٠٦.

(5) البخاري، الجامع الصحيح، "كتاب الإيمان"، ٤٠ (رقم ٤٠).

(6) الحارث بن أسد المحاسبي، رسالة المسترشدين، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، (حلب - سوريا: مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م).

٧١،

(7) إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله التركي، (دار هجر، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م)، ٨٩ \ ٨.

أما فيما يتعلق بموضوع الرق والعبودية المنتشرة على وجه الأرض كنظام دولي فقد عمل الإسلام على تقليص وجوده إلى أبعد الحدود بشتى الطرق والأساليب، ومنها: الكفارات ككفارة قتل الخطأ تحرير عبد وإطلاقه الى عالم الحرية. كذلك العبد المالي على ملاك الرقيق، فمطلوب من مالك الرقيق أن يطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس، ولا يكلفه من العمل ما لا يطيق، بل والمطلوب منه -أيضا- إلغاء كلمة "العبد" و "الأمة" واستبدالها بكلمة "الفتى" و "الفتاة". بل لقد مضى الإسلام إلى ما هو أبعد من تحرير الرقيق، فلم يتركهم في عالم الحرية الجديد دون عصبية وشوكة وانتماء، وإنما سعى إلى إدماجهم في القبائل والعشائر والعصبيات التي كانوا فيها أرقاء، فأكسبهم عزتها وشرفها ومكانتها ومنعتها وما لها من إمكانات، وبذلك أقام نسيجاً اجتماعياً جديداً عن طريق "الولاء" الذي قال عنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "الولاء لحمة كلحمة النسب لا يُباع ولا يوهب"<sup>(1)</sup>، حتى لقد غدا أرقاء الأمس "سادة" في أقوامهم بعد أن كانوا "عبيدا" فيهم. وقد قال عمر بن الخطاب -وهو من هو- عن بلال الحبشي الذي اشتراه أبو بكر الصديق وأعتقه: سيدنا أعتق سيدنا! كما تمنى عمر بن الخطاب أن يكون سالم مولى أبي حذيفة حيا فيختاره في منصب الخلافة؛ فالمولى الذي نشأ رقيقاً قد حرره الإسلام، فكان إماماً في الصلاة وأهلاً لخلافة المسلمين<sup>(2)</sup>. ومن الأمثلة الرائجة في الأوساط الاجتماعية المتخلفة سؤالها الدائم عن حرية العقيدة في ظل الحكم الإسلامي، وكأنهم لم يقرؤوا قول الله تعالى في محكم كتابه: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}<sup>(3)</sup> وهي قاعدة لها أهميتها الكبرى من قواعد الدين، وركن عظيم من أركان سياسته كما يقول الشيخ محمد عبده في تفسيره لهذه الآية<sup>(4)</sup>. ومن صور حرية العقيدة في عهد النبوة والصحابة ينقل لنا مسروق قائلًا: كان لرجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ابنان، فتنصرا قبل البعثة، فقدموا المدينة في نفر من النصارى يحملون الطعام، فأتاها أبوهما، فلزمهما، وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما، فأبيا أن يسلما، فاختموا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال: يا رسول الله أيدخل بعضي النار وأنا انظر؟! فأنزل الله عز وجل: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} فخلى سبيلهما وأبيا أن يُسَلِّمَا.<sup>(5)</sup>

(1) عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد الدارمي، مسند الدارمي، (المملكة العربية السعودية، دار المغني للنشر والتوزيع، ١٤١٢ هـ - ٢٠٠٠ م)، "كتاب الفرائض"، ٥٣ (رقم ٣٢٠٣)

(2) المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، (مصر، ١٤٢٠ - ١٩٩٩)، 318\1

(3) سورة البقرة آية ٢٥٦

(4) محمد رشيد بن علي رضا، تفسير المنار، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م)، ٣٧\٣

(5) أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، (بيروت - لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م)، ٢٣٤\٢

ونقل سعيد بن جبير عن ابن عباس: كانت المرأة من الأنصار تكون مقلاة<sup>(1)</sup>، فكانت تنذر لئن عاش لها ولد لتهودنّه فإذا عاش ولدها جعلته في اليهوديّة. فلمّا جاء الإسلام وفهم منهم، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم عددٌ من أولاد الأنصار، فأرادت الأنصار استردادهم، وقالوا: أبناؤنا وإخواننا، فنزلت: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «قَدْ خَيَّرَ اللَّهُ أَصْحَابَكُمْ، فَإِنْ اخْتَارُوكُمْ فَهَمَّ مِنْكُمْ، وَإِنْ اخْتَارُوهُمْ، فَأَجْلُوهُمْ مَعَهُمْ»<sup>(2)</sup>.

أما ما يتساءل به البعض عن وجوب الجهاد والقتال فينبغي توضيح هذه النقطة، فالقتال والجهاد هو ليس لأسلمة الكافرين بالقوة المسلّحة، بل هو لإزالة الطغمة الظالمة التي تمنع الناس من حق اختيار المعتقد والدين الذي يهوى ويحبّ، وبهذا يتحدد هدف الجهاد بالمحافظة على أوطان المسلمين وتأمين سياج قوي يحيي الناس من الفتنة، كما فعل كفار قريش بالمسلمين في بداية الدعوة وقبل أن تقوى شوكتهم<sup>(3)</sup>، وكما يفعل المشركون والمستعمرون والصليبيون وأعداء الإسلام والمسلمين في كل وقت وحين، قال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ}<sup>(4)</sup>.

فالخلاف العقائدي وحلّه يأتي عن طريق طاولات الحوار والندوات الثقافية والمنابر الإعلامية، أما الذين امتشقوا السلاح وظلموا الناس واستباحوا دماءهم واغتصبوا أرضهم فقال تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}<sup>(5)</sup>، فلا يوجد حيلة تجاههم سوى تقوية شوكة المسلمين وتحذيرهم وصدّهم عن ديار المسلمين.

وفي الوقت الذي حدد الإسلام منهجيته لتكريم الإنسان وتحصيل الطمأنينة والحياة الآمنة للمجتمع الإسلامي بكافة عناصره وشرائحه الاجتماعية، ذكّر عليه الصلاة والسلام بالمسؤوليات الواقعة على الفرد لحماية الجماعة، فقد روى البخاري قوله عليه الصلاة والسلام: "مثل القائم في حدود الله<sup>(6)</sup> والواقع فيها كمثل قوم استهموا<sup>(7)</sup> على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء

(1) أي لا يعيش لها ولد

(2) سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي دمشقي النعماني، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، (بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م)، ٤ / ٣٢٨

(3) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٣٩١٣.

(4) سورة البقرة آية ١٩٦

(5) سورة العنكبوت: من الآية ٤٦

(6) المنكر لها، القائم في دفعها وإزالتها والمراد بالحدود: ما نهى الله عنه

(7) اقترعوا

مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً"<sup>(1)</sup>.

4- الشورى: هي تؤكد أن مصدر السلطات الأمة وليس الحاكم فقد شرع الإسلام له الشورى، وأمر باستشارة زعامات الأمة ومفكرها ومن توافقت عليهم الأمة بالقيادة وحسن السيرة في اتخاذ القرارات السياسية التي تهم الأمة، وفي قرارات الحرب والسلام والاتفاقات والعقود، فالخير كل الخير يتجلى في المشاورة والتربية عليها والمشاورة في حقيقتها هي ممارسة الأمة لحقها في اتخاذ القرار، وتحمل النتائج التي تفضي إليها القرارات التي اتخذوها<sup>(2)</sup>.

والأمر بالشورى نزل بعد معركة أحد التي كان للرسول عليه الصلاة والسلام رأياً في البقاء بالمدينة بينما أصحابه وخاصة فئة الشباب أبوا إلا التصدي للعدوان خارج المدينة، وبالرغم من النتائج الصعبة التي حصلت باستجابة الرسول -صلى الله عليه وسلم- لرأي صحابته أمر الله رسوله باعتماد مبدأ الشورى وعدم التخلي عنها، قال تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} <sup>(3)</sup> فَفَضَّلَ المشاورة على عدمها، بل وأمر بها بالرغم من أن النتائج قد لا تكون منسجمة مع الأمنيات والتطلعات، ومعنى شاورهم في الأمر أي في كل أمر يخص الدولة والمجتمع.

ولم يرد عن النبي -عليه الصلاة والسلام- أنه وضع قواعداً ونظاماً للشورى في زمانه، بل ترك هذا الأمر خاضعاً للتطور التاريخي والثقافي للمجتمع والعامل الزماني والمكاني للأمة، ولو وضعه لكان أصلاً من أصول الدين يحرم الخروج عنه، ولذلك اكتفى بوضع المبدأ والكيفية تركها للمجتمعات حتى لا تخالف الطريقة المبدأ ذاته<sup>(4)</sup>.

5- المساواة والعدالة: المساواة مصدر ساواه إذا كان سواءً له: أي مماثلاً، فالسواء المثل. ولا يُتصور تمام المساواة المطلقة بين البشر<sup>(5)</sup>؛ لتفاوتهم في الصفات والميول فليس كل الناس على درجة واحدة من الفطنة والذكاء وليسوا على درجة واحدة في القدرة على الإبداع، وليسوا على درجة واحدة في النشاط والكسل. والمساواة

(1) محيي الدين يحيى بن شرف النووي، رياض الصالحين، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، ٩٤.

(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١٩٩٤، ٢٠٠.

(3) سورة آل عمران، آية ١٥٩.

(4) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٢٠١٤.

(5) محمد الطاهر ابن عاشور، جبهة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور، المحقق: محمد الطاهر الميساوي، (الأردن: دار

النفائس للنشر والتوزيع، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م)، ٧١٠، ٧١٢.

في أصول شريعة الإسلام، هي المماثلة بين الناس في مقادير معلومة وحقوق مضبوطة<sup>(1)</sup>. المساواة في الإسلام تتضمن تحقيق الإنصاف بين الناس في المعاملات، لا فرق بين رئيس ومرؤوس ولا بين غني وفقير، فالرسول عليه الصلاة والسلام سنَّ القانون وطبَّقه على نفسه وقومه قبل تعميمه على عامَّة المسلمين، ففي خطبة حجة الوداع قال عليه الصلاة والسلام: "وإنَّ ربا الجاهلية موضوع، وإنَّ أول ربًّا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب، وأن دماء الجاهلية موضوعة؛ وإنَّ أول دمٍ أبدأ به دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب."<sup>(2)</sup>

سرقَت امرأة من بني محزوم من قريش حُلِيًّا، فأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بإقامة الحدِّ عليها، فقالوا: "من يشفع لها عند رسول الله؟ فقال قائل: ومن يجترئ عليه غير أسامة بن زيد؟ فكلموا أسامة، فكلّم أسامة رسول الله في شأنها؛ فغضب رسول الله وقال: "أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟"، [ثم قال:] "إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ. والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقَت لقطعَت يدها"<sup>(3)</sup>. أشار كلام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى ما كان في الأمم السالفة من التفاضل في إقامة الشريعة.

وفي الصحيح أن الرُّبَيْع بنت النضر لطمت جاريةً فكسرت ثِيْبَتَهَا، فطلب أهل الجارية القصاص، فأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالقصاص، فجاء أنس بن النضر أخو الرُّبَيْع - وكان من خاصّة الصحابة من الأنصار - فقال: يا رسول الله، والله لا تُكسر ثنية الرُّبَيْع، فقال رسول الله: "يا أنس كتاب الله القصاص"، ثم إن أهل الجارية رضوا بالأرض<sup>(4)</sup> وتركوا القصاص.<sup>(5)</sup> وكما حدث في قصة الفزاري الذي لطمه جَبَلَةٌ بن الأيهم.<sup>(6)</sup>

تتضمن المساواة اختيار الأكفأ للعمل بغض النظر عن المكانة الاجتماعية والغنى والفقير، فالعدسة الإسلامية تنظر إلى الشخص باعتبار أهليته للعمل والمزايا التي يمتلكها للقيام بهذا العمل. فقد أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- زيد بن حارثة وهو من موالي قريش، وأمر ابنه أسامة بن زيد على جيش فتكلم في المرتين بعض

(1) ابن عاشور، جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور، ٧١١\٢

(2) محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري، صحيح ابن خزيمة، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، (بيروت: المكتب الإسلامي)، ٢٥١ / ٤، (رقم ٢٨٠٩)

(3) صحيح البخاري / البخاري / "كتاب الأنبياء"، ٥٢ (رقم ٣٢٨٨)

(4) الأَرْضُ: دِيَةٌ الجِرَاحَةِ

(5) البخاري، جامع الصحيح، "كتاب الصلح"، ٢ (رقم ٢٥٥٦)

(6) جَبَلَةٌ بن الأيهم ملك غسان بدمشق، أسلم بعد فتح الشام وسكن المدينة، انظر قصته مع اختلاف في تفاصيلها في: ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992/1412)، ٢٦٠ - ٢٦٠، و ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٦٣ - ٢٦٩

العرب، فخطب رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: «إن تطعنوا في إمارته -يعني أسامة- فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل، وإيم الله إن كان -أي زيد- لخليقًا بالإمارة، وإن هذا -أسامة- لمن أحب الناس إليّ». فنَبّه بقوله: «إن كان لخليقًا بالإمارة» على أن الاعتبار بالكفاءة، ونَبّه بقوله: «من أحب الناس إليّ»<sup>(1)</sup> على أنه إنما اكتسب محبة الرسول -صلى الله عليه وسلم- لفضله وكفاءته، إذ بذلك تُكتسب محبة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وبذلك أسقط الرسول -صلى الله عليه وسلم- النظام الطبقي المعمول به يومئذ ليحلّ محله النظام الأخوي للمسلمين. وعن ابن عباس، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «المسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويرد على أقصاهم».<sup>(2)</sup>

وقد جاءت التشريعات الإسلامية معتبرة لهذا الحق الأصلي في المساواة بين جميع الناس أمام القانون، لا مجال للحظوة الخاصة ولا لدواعي القربى، ولا للعصبية العرقية، قال تعالى: {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} <sup>(3)</sup>، ولا ما من شأنه أن يمس حقوق الناس بغير وجه حق مما يخالف مقتضيات العدالة التي تضمنتها شريعة الإسلام، قال جل شأنه: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} <sup>(4)</sup>.

مبدأ العدالة: ويعني بصورة مباشرة إعطاء كل شيء حقه، واستعمال كل شيء في موضعه، وفي ظل الحكم الإسلامي يتخذ قانوناً يحكم جميع تصرفات الإنسان وعلاقته بغيره وواجباته نحو غيره وواجبات الغير نحوه، وفي موضوع العدل قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} <sup>(5)</sup>، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا

(1) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «بعث النبي صلى الله عليه وسلم بعثاً، وأمر عليهم أسامة بن زيد، فطعن بعض الناس في إمارته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم أن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وإيم الله إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليّ، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعدة» البخاري، الجامع الصحيح، ٤٠ (رقم ٤٠٠٤)

(2) (تتكافأ) أي تتساوى في القصاص والديات. لا يفضل شريف على ضيع. (وهم يد) أي اللائق بحالهم أن يكونوا كيد واحدة في التعاون والتعااضد على الأعداء. فكما أن اليد الواحدة لا يمكن أن يميل بعضها إلى جانب وبعضها إلى جانب آخر فكذلك اللائق بشأن المؤمنين. (يسعى بذمتهم أدناهم) أي أقلهم عدداً وهو الواحد. وأقلهم رتبة وهو العبد. يمشى به بعقده لمن يرى من الكفرة. فإذا عقد حصل له الذمة من الكل. (ويرد على أقصاهم) أي يرد الأقرب منهم الغنيمة على الأبعد.

ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن بن ماجه، تحقيق: محمد عبد الباقي، (دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي)، "كتاب الديات"، ٣١ (رقم ٢٦٨٣)

(3) سورة الأنعام آية ١٥٢

(4) سورة النساء آية ٥٨

(5) سورة النساء آية ٥٨

اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى<sup>(1)</sup>، ولا شكَّ أن هذا المبدأ يضمن مصالح الناس ويتيسر لكل تنظيم صحيح يحقق معنى العدالة، فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيه، قال: كان أسيد بن حضير رجلاً ضاحكاً مليحاً قال: فينما هو عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحدث القوم ويضحكهم فطعن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بأصبعه في خاصرته، فقال: أوجعتني، قال: "اقتص" قال: يا رسول الله إن عليك قميصاً، ولم يكن علي قميص، قال: فرفع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قميصه فاحتضنه، ثم جعل يقبل كشحه<sup>(2)</sup>، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أردت هذا<sup>(3)</sup>.

ومن صور تحقيق العدل بالمساواة أمام القانون في قصة شريح في قضية علي بن أبي طالب مع اليهودي في الدرع أعظم مثلاً للقضاء والمتقاضين والحكم النزاهة، افتقد عليُّ درعه سقط عن بعيره فأخذه يهودي فادعاه به فلم يعطه وقال درعي وفي يدي فاحتكما إلى شريح فطلب شريح من عليّ البينة فقال: ليس عندي إلا الحسن والخادم. فقال له أما الحسن فولدك ولا تقبل شهادته لك، فقال علي: ويحك ألم تسمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة"، قال: بلى والله أعلم، ولكن لا بد لك من شاهد آخر، فقال: ليس عندي، فقال لليهودي: انطلق بالدرع، فلما خرج قال: واعجباً والله قاضي المسلمين وإمامه أمير المؤمنين ولم يقبل شهادة ولده له وهو ابن بنت رسول الله، هذا والله هو العدل، يا علي هذا الدرع لك سقط عن بعيرك فأخذته ولكن أردت أن أنظر ماذا سيصنع قاضيك لك وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ففرح علي وقال: خذ الدرع فهو لك وخذ هذه مائتا درهم لك<sup>(4)</sup>. هذه هي عدالة الإسلام ومساواته بين جميع المواطنين في الحقوق أمام القضاء مما لم يعرف له العالم مثيلاً، لا قديماً ولا حديثاً.

وفي مجال الحرص على تحقيق العدالة قال أبو بكر -رضي الله عنه-: "الضعيف فيكم قويُّ عندي حتى أُرْجِعَ عليه حقَّه إن شاء الله، والقويُّ فيكم ضعيفٌ حتى أخذ الحقَّ منه إن شاء الله"<sup>(5)</sup>، إنَّ العدل في فكر أبي بكرٍ

(1) سورة المائدة آية ٨

(2) الْجُرءُ الْجَانِبِيُّ مِنَ الْجِسْمِ مَا بَيْنَ الضُّلُوعِ وَالْخَاصِرَةِ

(3) سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السَّجِسْتَانِي، سنن أبي داود، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (صيدا - بيروت: المكتبة العصرية)، ٥٩ (رقم ٥٢٢٤)

(4) إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، مسند الفاروق أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأقواله على أبواب العلم، المحقق: إمام بن علي بن إمام، (مصر: دار الفلاح، ١٤٣٠ هـ | ٢٠٠٩ م)، ٢٤٦ | ٢ (رقم ٥٨٢)

(5) أ.د. وهبة بن مصطفى الزُّحَيْلِي، الفِئَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَأَدْلَتُهُ، (دمشق: دار الفكر)، ٦٢٠٨ \ ٨

هو عدل الإسلام، الذي هو الدِّعامةُ الرئيسيَّةُ في إقامة الحكم الإسلاميّ، فلا وجود للإسلام في مجتمعٍ يسوده الظلمُ، ولا يعرف العدلُ.

أخرج الحافظ أبو نعيمٍ في حلية الأولياء عن إبراهيم ابن هشام بن يحيى الغساني، حدثني أبي، عن جدي، قال: لما ولّاني عمر بن عبد العزيز الموصل، قدمتها فوجدتها من أكبر البلاد سرقاً ونقياً، فكتبت إلى عمر أعلمه حال البلاد وأسأله أخذ من الناس بالمظنة وأضرهم على التهمة أو أخذهم بالبينة وما جرت عليه عادة الناس؟ فكتب إلي أن أخذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنة، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله، قال يحيى: ففعلت ذلك فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقله سرقاً ونقياً<sup>(1)</sup>. ولا يقتصر تحقيق العدالة في الشريعة الإسلامية على المسلمين فحسب، بل أمر بتحقيق العدل على من تحب ومن لا تحب، فهذا عمر رضي الله عنه يأتي إليه رجل من العرب ويطلب منه شيئاً، فأعطاه عمر رضي الله عنه، ولكن في نفس عمر منه شيء، إذ كان الرجل أعرابياً، وكان جلفاً وفيه فضاضة، فقال له عمر: والله إنني لأبغضك، فنظر الأعرابي إلى عمر وقال: هل بغضك لي يمنعني من حقي؟ قال: لا، قال: إنما يحزن على الحب النساء. فهذا الأعرابي يعترف بأن عمر كان عادلاً، وأيضاً يكره منه فضاضته وغلظته وشقاوته، فإن الذي يحبه عمر هو الرجل المؤمن، ولن يحب إلا مؤمناً، فإذا كان عمر يكره هذا الإنسان فإن الأولى بهذا الإنسان أن يقول ل عمر رضي الله عنه: لم تكرهني؟ وما هي الصفة التي أغيرها إذا كان في شيء تكرهه؟ ولكن الرجل لم يفهم.

الوثيقة التاريخية التي من شأن القضاء الإسلامي أن يعتزّ بها، هي وصية عمر رضي الله عنه للقاضي أبي موسى الأشعري، الذي كان بمثابة النائب العام للجمهورية في أيامنا، إذ يقول له: "ساوي بين الناس في وجهك ومجلسك وقضائك حتى لا يطمع شريفٌ في حيفك، ولا ييأس ضعيفٌ من عدلك"<sup>(2)</sup>. إن هذه الوصية لم تبق رسالة مهملة، بل كان أثرها بليغاً في الواقع، كما تدلُّ على ذلك الأمثال الكثيرة في عهد تشكل مفهوم العدل.

فعلى هذه الاعتبارات يصح القول بأن الحكم الإسلامي حكم عادل في مصدره وفي عمله، كما قدمنا، والإسلام يتضمن كل السمات الإيجابية لتحقيق العدل في جميع الشرائح الاجتماعية. كما حدّر رسول الله -

(1) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: حمدي الدمرداش، (مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، ١٧٨.

(2) مالك بن الحجاج عمر بن الخضر بن نبي، القضايا الكبرى، (بيروت- لبنان: دار الفكر المعاصر، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، 156.

صلى الله عليه وسلم- المدراء والأمرء والقادة إذا تأمروا من عدم إقامة العدل في الرعيّة فقال: "ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه من غله ذلك إلا العدل أو يُوبقهُ الْجَوْرُ" (1).

6- السّماحة في المعاملة: عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- أنّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى» (2)(3). وفي رواية «وإذا قضى». لقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعو بالرحمة وإسباغ النعمة للرجل السّماح السهل، ودعاؤه عند الله بمكانة عظيمة لأنه صادر من النفس الطاهرة المخلصة، من اللسان الرطب بذكر الله، فتفتح له أبواب الإجابة "إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ" (4)(5) وقد ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- السّماحة في أربعة أشياء: في البيع، والشراء، والاقتضاء، والقضاء (6).

فالسّماحة في البيع: ألا يكون شحيحاً بسلخته، مستقصياً في ثمنها، مغالياً في الربح، بل يكون كريم النفس، راضياً بيسير الربح. والسّماحة في الشراء: أن يكون سهلاً في كياسة، فلا يدقق في الدائق والملميم، خصوصاً إن كانت السلعة شيئاً هيناً كفجلة أو بصلة، والمشتري غنياً، والبائع فقيراً معدماً. والسّماحة في الاقتضاء: أن يطلب حقه أو دينه بهدوء بلا عنف وفي لين بلا شدة، ويراعي حال المدين فإن كان معسراً أنظره وأخره، بل إن كانت حاله لا تسمح بالسداد تصدق عليه بحقه أو من حقه "وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (7)، ومن السّماحة في الاقتضاء: ألا يطالب المدين على مشهد من الناس ومسمع، خصوصاً إذا كانوا لا يعلمون بالدين، أو يتأذى المدين بالجهر وألا يطالبه في أوقات راحته وهناءته، فينغص

(1) الإمام أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، (مؤسسة الرسالة، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م)، (٣٥١١١٥، رقم ٩٥٧٣).

(2) البخاري، الجامع الصحيح، "كتاب البيوع"، ١٦ (رقم ١٩٧٠).

(3) (سمحا) جوادا متساهلا، يوافق على ما طلب منه. (اقتضى) طلب الذي له على غيره.

(4) سورة فاطر، آية ١٠ .

(5) «الْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الَّذِي يَرْفَعُ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ».

أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي، تفسير مجاهد، تحقيق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، (مصر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م)، ٥٥٧.

(6) محمد عبد العزيز بن علي الشاذلي الخولي، الأدب النبوي، (بيروت: دار المعرفة، ١٤٢٣ هـ)، ٣٥.

(7) سورة البقرة، الآية: ٢٨٠.

عليه صفوه<sup>(1)</sup> وأما السماح في القضاء: فأَنْ يرد الحق لصاحبه في الموعد المضروب، ولا يكلفه عناء المطالبة أو المقاضاة، فالحديث يرغبنا في حسن المعاملة، وفي كرم النفس، وفي مراعاة المصلحة، وفي حفظ الوقت.<sup>(2)</sup>

7- كفالة الدولة الإسلامية لمختلف الشرائح الاجتماعية التي تحتاج إلى الدعم المادي والاجتماعي: بتشكيل المؤسسات اللازمة لتنفيذ هذه المشروعات الإنسانية الخدمية الكبيرة وتنظيم الموارد المادية الداعمة:

دعم الفقراء والمساكين ومن ذكرهم الله في محكم كتابه "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا"<sup>(3)</sup> وَالْمَوْلَّاتِ قُلُوبُهُمْ، وَفِي الرِّقَابِ، وَالْغَارِمِينَ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَابْنِ السَّبِيلِ، فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ"<sup>(4)</sup>.

دعم اليتامى والأرامل وهو واجب المجتمع في ظل الحكومة الإسلامية إن كان عن طريق المنظمات الأهلية أو المنظمات الحكومية المتخصصة بهذا العمل، يقول عليه الصلاة والسلام: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، وكالذي يقوم الليل ويصوم النهار»<sup>(5)</sup>. ودعا عليه الصلاة والسلام إلى دعم الأيتام معنويا ونفسياً بعد القيام بالدعم المادي بشتى الطرق الملائمة لثقافة الأجيال بمسح الرأس أو بإقامة حفلات جبر خاطر والترفيه عن اليتامى قال عليه الصلاة والسلام: «من مسح على رأس يتيم لا يريد به إلا الله عز وجل كان له بكل شعرة مرت عليها يده حسنة، ومن أحسن إلى يتيم، أو يتيمة كنت أنا وهو كهاتين» وضم بين الوسطى والسبابة<sup>(6)</sup>، و قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا» وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَابَةَ وَالْوُسْطَى"<sup>(7)</sup>.

توفير المرافق الدينية والثقافية والترفيهية، وسائر الأنشطة التي تستجيب لحاجيات الإنسان الروحية والنفسية والجسدية، كالمساجد والجوامع والمدارس والمكتبات والفضاءات الرياضية والترفيهية<sup>(8)</sup>، قال رسول

(1) محمد عبد العزيز الخولي، الأدب النبوي، ٣٥.

(2) محمد عبد العزيز الخولي، الأدب النبوي، ٣٥.

(3) جياة الصدقات والمتولون بقبضها.

(4) سورة التوبة، آية ٦٠.

(5) ابن ماجة، السنن، "كتاب التجارات"، ١ (رقم ٢١٤٠).

(6) أحمد بن حنبل، المسند، ٥١٤\٣٦، (رقم ٢٢٢٨٤).

(7) البخاري، الجامع الصحيح، "كتاب الأدب"، ٢٤ (رقم ٥٦٥٩).

(8) الدكتور حسن بن محمد سفر، "حقوق الإنسان وحياته"، ٢٣٢.

الله - صلى الله عليه وسلم -: "من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة"<sup>(1)</sup>، ويروي صفوان بن عسال المرادي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قوله: "إن الملائكة تبسط أجنحتها لطالب العلم"<sup>(2)</sup> وقد شرع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التنافس في الرياضة والسباق وفيما تروي عائشة - رضي الله عنها - قالت: "خرجت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في سفر، فقال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم: تعالي حتى أسابك، فسبقته، فخرجت معه بعد ذلك في سفر، فنزلنا منزلاً، فقال لي: تعالي حتى أسابك، قالت: فسبقتني، فضرب بين كتفي وقال: هذه بتلك"<sup>(3)</sup> وقال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه -: "علموا أولادكم الشعر فإنه يعلمهم مكارم الأخلاق"<sup>(4)</sup>، وكتب عمر - رضي الله عنه - إلى الشام أن "علموا أولادكم السباحة والرمي والفروسية"<sup>(5)</sup>، وهذا الأمر لا يتم إلا بتوفير النوادي.

8- صقل التجارة الإسلامية: بصفاء القلوب وصدق المآلات، ومنع المظالم، حيث عملت القوانين الإسلامية على تجفيف موارد الخوف والقلق والغضب والفساد؛ تأليفاً لقلوب المسلمين وحرصاً على إجراء المعاملات التجارية بمظلة أمنية مراقبة من الله سبحانه بما يعود على أفراد المجتمع بالخير والبركة.

أ- فقال صلى الله عليه وسلم: "لا يتلقى الركبان لبيع، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، ولا تناجشوا، ولا يبع حاضر لباد، ولا تصروا الإبل والغنم، فمن ابتاعها بعد ذلك فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها، فإن رخصها أمسكها، وإن سخطها ردها وصاعاً من تمر"<sup>(6)</sup> فمنع صلى الله عليه وسلم عن "تلقي الركبان" أي استقبال الحضري البدوي خارج العمران قبل وصوله إلى سوق البلد مخافة أن يشتري منه سلعته بأقل من ثمنها الحقيقي. وفي رواية عن أبي هريرة قال: «نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يتلقى الجلب فإن تلقاه إنسان

(1) أبو داود الطيالسي سليمان بن داود بن الجارود، مسند أبي داود الطيالسي، المحقق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، (مصر: دار هجر، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م)، ٣٤٤/٤، (رقم ٢٧٣٩).

(2) الإمام أحمد، المسند، ٩٣٠، (رقم ١٨٠٨٩).

(3) أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شعبة الكوفي العبسي، المصنف في الأحاديث والآثار، (لبنان: دار التاج، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م)، ٥٣١/٦، (رقم ٣٣٥٨٨).

(4) المظفر بن الفضل بن يحيى، نضرة الإغريض في نصرة القريض، ٦٥.

(5) زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، فيض القدير شرح الجامع الصغير، (مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٥٦ هـ)، ٣٢٧/٤، (رقم ٥٤٧٨).

(6) أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح، (تركيا: دار الطباعة العامرة، ١٣٣٤ هـ)، "كتاب البيوع"، ٤ (رقم ١١).

فابتاعه فصاحب السلعة فيها بالخيار إذا ورد السوق»<sup>(1)</sup> تأكيداً لمصلحة المتبايعين ومنعاً للغش التجاري، ومحافظةً على ثمن السلعة حتى أنه مكّن صاحب السلعة من استرداد سلعته إذا وجد نفسه مغبوناً بسعرها.

ب- كما نهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن كل مسبب قد يشحن القلوب بالعداوة والبغضاء بين الناس ويلقي عليها ظلالاً من الريبة والشك في مجال التجارة فقال: "ولا يبيع بعضكم على بيع بعض" ومعناها أن يتراضى المتبايعان على ثمن سلعة ثم يأتي آخر فيقول أنا أبيعك بمثل هذه السلعة بثمن أقل أو بأجود منها بنفس الثمن، فحرّم عليه الصلاة والسلام هذا الطرف الثالث من التّدخل بين البائع والشاري بعد التراضي حتى لا تصيب القلوب المتحابّة في الله دَخَنٌ أو ريبة.

ج- وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن بيع التناجش وهو استثارة المشتري بزرع الرغبة في نفسه لكي يشتري السلعة بثمن أعلى من ثمنها فقال "ولا تناجشوا."<sup>(2)</sup>

د- ومنع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيع أهل المدينة والحضر لبضاعة أهل البوادي والريف فقال "ولا يبيع حاضر لباد"<sup>(3)</sup>، فيتولى أهل القرى والبوادي بيع بضاعتهم بأنفسهم حتى لا يرتفع الثمن على المشتريين من الناس بسبب وجود الوسيط. هـ- ومن العادات السيئة التي كانت في الجاهلية بيع المزابنة والمحاكلة يروي سعيد بن المسيب، «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع المزابنة والمحاكلة»<sup>(4)</sup>، والمزابنة تعني بيع ثمر النخيل في رؤوس النخل بكيل معلوم من التمر أو بيع العنب على الكرم بكيل معلوم من الزبيب<sup>(5)</sup>، والمحاكلة هو أن يشتري الزرع غضا قبل أن يستبين صلاحه<sup>(6)</sup>. ومن أسباب تحريم المزابنة والمحاكلة منع الشحناء والبغضاء بين المسلمين فقد يقع الشاري بوهم ضخامة الإنتاج فيكون أقل من المتوقع أو يهيم البائع فيكون أكثر بكثير من المتوقع فيقع في نفسه شيء، ولأجل قطع جذور الكراهية وكل مسبب لها بين إخوة الإيمان حذر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من المبايعات غير الواضحة والتي قد يعترها الضباب وتحدث فيها مظلمة للشاري أو البائع. عن ابن عمر، «أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نهى عن بيع النخل حتى يزهو، وعن السنبل حتى

(1) أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الكبير (سنن الترمذي)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: بشار عواد معروف، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٦ م)، "أبواب البيوع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم"، ١٣ (رقم ١٢٢١)

(2) البخاري، الجامع الصحيح، "كتاب البيوع"، ٧٠ (رقم ٢٠٥٢)

(3) البخاري، الجامع الصحيح، "كتاب البيوع"، ٦٩ (رقم ٢٠٥١)

(4) مسلم، الجامع الصحيح، "كتاب البيوع"، ١٤ (رقم ٥٩)

(5) محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني، نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار، المحقق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م)، ١٦ / ٣٢٣

(6) محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، جمهرة اللغة، المحقق: رمزي منير بعلبكي، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٧ م)، ١ / ٥٥٨

يبيض، ويأمن العاهة»<sup>(1)</sup>، وفيه نهى صلى الله عليه وسلم وبشكل واضح عن بيع الثمر قبل ظهور صلاحه ويكون ذلك باكتسابه اللون الأحمر أو الأصفر، وعن بيع السنابل في الحقل حتى يشتد عوده ويبدو صلاحه ويأمن الأفة التي تصيب الزرع أو الثمر ونحوه. ورأى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في تعليل هذا المنع فقال: «أرأيت إذا منع الله الثمرة، بم يأخذ أحدكم مال أخيه»<sup>(2)</sup>، بمعنى بأي حق يستحل البائع الثمن الذي دفعه الشاري إذا لم يحصل شيء من الثمر وبناء على ذلك تم استنتاج القاعدة الفقهية "الربح لا يستحق إلا بعمل أو مال"<sup>(3)</sup>.

و- كما نهى الإسلام عن التطفيف بالميزان منعاً للظلم وتحقيقاً للعدل بين البائع والمشتري وكان من عادة أهل المدينة إذا ابتاعوا كيلاً أو وزناً استوفوا وأفرطوا، وإذا باعوا كيلاً أو وزناً نقصوا<sup>(4)</sup> فنزلت «ويلٌ للمطففين»، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اكتالوا حتى تستوفوا»<sup>(5)</sup> بمعنى حتى تأخذوا حقكم.

ز- تحريم الربا: كما بلغ عليه الصلاة والسلام آيات تحريم الربا وقد كان عادة جاهلية متفشية بين الناس يستغل فيها الغني حاجة الفقير فقد حدثت عائشة -رضي الله عنها- فقالت: «لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا، قرأها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الناس...»<sup>(6)</sup>. و«لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل الربا ومؤكله»<sup>(7)</sup>.

ومن قواعده عليه الصلاة والسلام في التجارة، الذهب بالذهب مقداراً بمقدار لا زيادة ولا نقصان وكذلك في الفضة والمأكولات الغذائية اليومية؛ منعاً لفساد القلوب وتطميناً لها، فعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «الذهب بالذهب مثل بمثل، والورق بالورق مثل بمثل، والتمر بالتمر مثل بمثل، والحنطة بالحنطة مثل بمثل، والشعير بالشعير مثل بمثل حتى خص الملح بالملح فمن زاد أو ازداد فهو ربا»<sup>(8)</sup>.

(1) مسلم، الجامع الصحيح، "كتاب البيوع"، ١٣ (رقم ٥٠)

(2) البخاري، الجامع الصحيح، "كتاب البيوع"، ٨٧ (رقم ٢٠٨٦)

(3) محمد صديقي بن أحمد بن محمد آل بورنو أبو الحارث الغزي، موسوعة القواعد الفقهية، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م)، ٤ /

٣٨٨

(4) يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء، معاني القرآن، المحقق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل

الشلبي، (مصر: دار المصرية للتأليف والترجمة)، ٢٤٥ / ٣

(5) البخاري، الجامع الصحيح، "كتاب البيوع"، ٥١ (رقم ٥١)

(6) البخاري، الجامع الصحيح، "كتاب المساجد"، ٤٠ (رقم ٤٤٧)

(7) مسلم، الجامع الصحيح، "كتاب البيوع"، ٤٠ (رقم ١٠٥)

(8) عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله القرشي الأسدي الحميدي المكي، مسند الحميدي، (دمشق: دار السقا، ١٩٩٦ م) ١١ / ٣٧٦، (رقم ٣٩٤)

ح - منع الاحتكار وغلاء الأسعار، قال عليه الصلاة والسلام: "من احتكر فهو خاطئ"<sup>(1)</sup>، والخاطئ هو العاصي المرتكب للذنوب، والاحتكار هو الإمساك عن البيع حتى يغلو الثمن ويتضاعف الربح، وقد قال العلماء بتحريم الاحتكار في أقوات الناس، والحكمة المُستنبطة في تحريم الاحتكار دفع الضرر عن عامة الناس كما أجمع العلماء.<sup>(2)</sup>

فالإسلام لم يقاوم فقط الاحتكار الكبير الذي يقلل كمية المنتجات حتى ترتفع أسعارها في السوق، بل يقاوم كل احتكار يؤدي بأي طريقة إلى ارتفاع الأسعار. إن كل وسيط بين المنتج والمستهلك يخفي صورة الاحتكار الذي يكون المستهلك ضحيته، فالوسيط ضرب من الطفيلية في مجال الاقتصاد.

#### 9- خصائص المجتمع الإسلامي في روضة الإسلام:

المجتمع المسلم مجتمع متكاتف متراس متآخي متراحم يرتبط بعضه ببعض بعلاقات المحبة العالية والودّ غير المتناهي، وشبهه عليه الصلاة والسلام بالجسد الواحد إذا تألم عضو منه تداعى له سائر فعاليات الجسد بدءاً من الأجهزة المناعية والدم وليس انتهاءً بالقلب والدماغ لإنقاذه حتى ولو أصابه الإجهاد والضعف وارتفاع الحرارة.

يقول عليه الصلاة والسلام: "مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"<sup>(3)</sup>. ويشير عليه الصلاة والسلام إلى التعاضد بين المسلمين وتماسكهم، وشبههم بالبنيان المتماسك بروابط القوة فكل شخص فيه يرتبط بالمجتمع بعلاقات قوية يسودها التعاون والترابط «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»<sup>(4)</sup>.

ومن حقوق الأخوة في الإسلام ما ذكره ابن جزي الكلبي فقال: "حقوق المسلم على المسلم عشرة أن يُسَلِّمَ عليه إذا لقيه ويعوده إذا مرض، ويجيبه إذا دعاه، ويُشَمِّته إذا عطس، ويشهد جنازته إذا مات، ويبر قسمه إذا أقسم، وينصح له إذا استنصحه، ويحب له من الخير ما يحب لنفسه، ويكف عنه شره ما استطاع"<sup>(5)</sup> ويروي البخاري عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "المسلم من سلم

(1) مسلم، الجامع الصحيح، "كتاب البيوع"، ٤٧ (رقم ١٢٩)

(2) عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصبي القحطاني الحنبلي النجدي، الإحكام شرح أصول الأحكام، (١٤٠٦ هـ)، ١٢٤١٣

(3) مسلم، الجامع الصحيح، "كتاب البر والصلة والآداب"، ١٧٠ (رقم ٦٦)

(4) مسلم، الجامع الصحيح، "كتاب البر والصلة والآداب"، ١٧٠ (رقم ٦٥)

(5) أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي، القوانين الفقهية، ٢٩١

المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نبى الله عنه<sup>(1)</sup>، فالمسلم يبذل ما استطاع في السيطرة على نفسه كي لا يؤدي أحداً من إخوانه، وحقّز رسول الله -صلى الله عليه وسلّم- على بذل الصدقة فقد قال: "الصدقة تُطفئ الخطيئة كما يُطفئ الماء النار"، وقال "تَبَسُّمُكَ فِي وَجهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَنَصْرُكَ الرَّجُلَ الرَّدِيءَ الْبَصِيرَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشُّوكَ وَالْعِظَمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ."<sup>(2)</sup>

10- قاعدة: لا ضرر ولا ضرار: الضرر مرفوع بحكم الشريعة فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»<sup>(3)</sup> أي لا يجوز لأحد إيقاع الضرر بنفسه أو بغيره، كما أنّ مقابلة الضرر بالضرر لا يجوز؛ لأنه عبث وإفساد لا معنى له، فمن أحرق مال غيره فلا يجوز للغير إحراق مال المعتدي، وإنما له أن يطالبه بالتعويض، وإذا كان الضرر ممنوعاً فإنّه إذا وقع وجب رفعه، ولهذا جاءت قاعدة فرعية مبنية على هذه القاعدة هي: "الضرر يُزال"، وهناك فروع وأحكام كثيرة بنيت على هذه القاعدة، منها: تقرير حق الشفعة، ومنع التعسف في استعمال الحق.<sup>(4)</sup> عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا يمنع أحدكم جاره أن يفرز خشبة في جداره» يقول أبو هريرة: ما لي أراكم عنها معرضين، والله لأؤمّننّ بها بين أكتافكم.<sup>(5)</sup>

11- منع الفساد الإداري: وقد حرّم الإسلام الرشوة منعاً للفساد الإداري وتحقيقاً للعدالة، والرشوة لها معانٍ متعددة: فمن معانيها ما يعطى من المال أو نحوه لإبطال حق أو إحقاق باطل<sup>(6)</sup>، وقد حدّر عليه الصلاة والسلام الراشي والمرتشي من الطرد من رحمة الله فقال: "لعن الله الراشي والمرتشي في الحكم"<sup>(7)</sup>. والقصة المشهورة في السيرة عن أبي حميد الساعدي قال: "استعمل النبي -صلى الله عليه وسلم- ابن اللثبية رجلاً من

(1) البخاري، الجامع الصحيح، "كتاب الإيمان"، 3 (رقم 10).

(2) محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، مصابيح السنة، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، محمد سليم إبراهيم سمارة، جمال حمدي الذهبي، (بيروت - لبنان: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، 1407 هـ - 1987 م)، 51/2، (رقم 1356).

(3) أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، السنن الكبرى، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1424 هـ - 2003 م)، 114/6 (رقم 11384).  
«لا ضرر ولا ضرار» الأول: إلحاق مفسدة بالغير مطلقاً والثاني: إلحاقها به على وجه المقابل أي كلّ منهما يقصد ضرر صاحبه.

(4) عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1421 هـ - 2001 م)، 63.

(5) الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلي القرشي المكي، المسند، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1400 هـ)، 224.

(6) د أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، (عالم الكتب، 1429 هـ - 2008 م)، 897/2.

(7) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، 8/15، (رقم 9031).

الأزد على الصدقة، فجاء بالمال فدفعه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: هذا ما لكم، وهذه هديّة أهديت إلي، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: أفلا قعدت في بيت أبيك وأمك فتتنظر أيّ هدى إليك أم لا؟! ثم قام النبي -صلى الله عليه وسلم- خطيباً؛ لشعوره بخطورة القضية فقال: أما بعد، فما بال العامل نستعمله، فيأتينا فيقول: هذا من عملكم، وهذا أهدي لي، أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فنظر: هل يهدى له أم لا، فوالذي نفس محمد بيده، لا يغل أحدكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه،..."<sup>(1)</sup> ولفت نظر القضاة إلى عدم إصدار الأحكام في حالات الغضب حتى لا يظلم في حكمه، فالغضب يمنع استيعاب المسألة قال صلى الله عليه وسلم: «لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان».<sup>(2)</sup>

وقد ألحق الفقهاء الغضب بمجموعة من العوامل التي يمكن أن تحول دون فهم القاضي للقضية والروية في استيعابها والحكم فيها، مثل الجوع والألم والشبع المفرط والفرح الزائد ومدافعة الأخبثين، ومتعلق القلب بشيء بعيد عن القضية.

وحدّر من الظلم والجور: فعن ابن عمر أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «الظلم ظلمات يوم القيامة».<sup>(3)</sup>

12- الصّحة العامّة وطرق الوقاية: أدرك عليه الصلاة والسلام أهمية الأمن الصحي لأبناء المجتمع فقال: "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ"<sup>(4)</sup>. وأشار عليه الصلاة والسلام إلى العزل الصحي؛ لحماية الأصحاء ومنع انتشار الأمراض والأوبئة فقال: «...وفّر من المجذوم كما تفرّ من الأسد»<sup>(5)</sup>، وقال «لَا يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحِّ»<sup>(6)</sup> كما نبّه المؤمنين وحثّهم على الاعتدال في الطعام للمحافظة على رشاقة أجسامهم وصحة أبدانهم فقال عليه الصلاة والسلام: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، حسب آدمي، لقيمات يقمن صلبه، فإن غلبت الآدمي نفسه، فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس».<sup>(7)</sup>

(1) البخاري، الجامع الصحيح، "كتاب الأيمان والندور"، ٢ (رقم ٦٢٦٠)

(2) مسلم، الجامع الصحيح، "كتاب الأفضية"، ٧ (رقم ١٦)

(3) الطيالسي، المسند، ٤٠٨\٣، (رقم ٢٠٠٢).

(4) البخاري، الجامع الصحيح، "كتاب الرقاق"، ١ (رقم ٦٠٤٩).

(5) البخاري، الجامع الصحيح، "كتاب الطب"، ١٩ (رقم ٥٣٨٠).

(6) مسلم، الجامع الصحيح، "كتاب السلام"، ٣٣ (رقم ١٠٤).

(7) ابن ماجه، السنن، "كتاب الأظعمة"، ٥٠ (رقم ٣٣٤٩).

وفي مجال المحافظة على الصحة العامة لأبناء المجتمع ومنعاً لانتشار الأمراض والميكروبات والجراثيم والعوامل الممرضة الأخرى كالفيروسات، قال عليه الصلاة والسلام: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري، ثم يغتسل فيه».<sup>(1)</sup>

ثم أكد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على المسلمين اتباع سبل الوقاية والحماية وأرشدتهم إلى جملة من الآداب العامة للمسلمين فقال: "اتقوا الملاعن الثلاثة: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل".<sup>(2)</sup>

ووجه عليه الصلاة والسلام المسلمين إلى ضرورة تغطية الأواني المملوءة بالماء والغذاء حماية لهم من وقوع العوامل الممرضة في أواني الماء والطعام فتنتشر الأوبئة والأمراض، «غطوا الإناء، وأوكوا السقاء، فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء، لا يمر بإناء ليس عليه غطاء، أو سقاء ليس عليه وكاء، إلا نزل فيه من ذلك الوباء».<sup>(3)</sup> ووجههم إلى ضرورة إغلاق الباب وإطفاء السراج عند النوم، «غطوا الإناء، وأوكوا السقاء، وأغلقوا الباب، وأطفئوا السراج...».<sup>(4)</sup>

توفير وسائل العلاج من الأدوية والوقاية من الأوبئة والأمراض الخطيرة: ونبداً القول بالوعد الرائع من الله سبحانه لمن اهتم بحياة الإنسان كالأطباء والسلك الطبي والمنظمات الإغاثية لإنقاذ النفس البشرية من الموت يقول تعالى: (وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا).<sup>(5)</sup> وأمر عليه الصلاة والسلام أصحابه بالتداوي من المرض وأرشدتهم إلى وجود دواء لكل مرض ما عدا الشيخوخة والهزم ومن الأمراض ما تمكّن الإنسان من صناعة دوائه، ومن الأمراض ما يوجب على المسلمين اكتشاف دوائها، فعن أسامة بن شريك، قال: "أتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطير، فسلمت ثم قعدت، فجاء الأعراب من هاهنا وهاهنا، فقالوا: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أنتداوي؟ فقال: "تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد الهزم".<sup>(6)</sup>

13- الرسم الدقيق لشبكة العلاقات الاجتماعية بين المسلمين: الأخوة في الإسلام تفرض على المسلم أن لا يظلم أخاه ولا يسلمه إلى عدوّه بل يناصره إما بكفّ أذى الغير عنه أو بكفّ أذاه عن الغير، فعن أنس -رضي

(1) البخاري، الجامع الصحيح، "كتاب الوضوء"، ٦٨ (رقم ٢٣٦).

(2) أبي داود، السنن، "كتاب الطهارة"، ١٤ (رقم ٢٦).

(3) مسلم، الجامع الصحيح، "كتاب الأشربة"، ١٢ (رقم ٩٩).

(4) مسلم، الجامع الصحيح، "كتاب الأشربة"، ١٢ (رقم ٩٦).

(5) سورة المائدة، آية 32.

(6) أبي داود، السنن، "كتاب الطب"، ١ (رقم ٣٨٥٥).

الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوما»، قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوما، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «تأخذ فوق يديه»<sup>(1)</sup>. والمسلم في علاقته مع أخيه المسلم يمشي في حاجته فيقضيها عنه ويحاول جاهداً أن يفرّج همه وحزنه ويرفع عنه كربته وفاقته بماله أو جاهه أو بيده أو برأيه، كما أنه مَكْمُنٌ سرّه وبئر أسرارهِ وحديقة أحلامه ومتنفسه في الدنيا يستر ذنبه ويغطي عورته طمعاً برضى الله والأجر في الآخرة، فعن سالم عن أبيه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»<sup>(2)</sup>.

وأكدّ عليه الصلاة والسلام على موضوع ستر عورات المسلمين وتحريم كشفها أو تتبعها لفضحها فقال: «من ستر عورة أخيه المسلم، ستر الله عورته يوم القيامة، ومن كشف عورة أخيه المسلم، كشف الله عورته، حتى يفضحه بها في بيته»<sup>(3)</sup>. ومن العلاقات البينية بين المسلمين أشار عليه الصلاة والسلام إلى العلاقة الفاعلة الإيجابية بإدخال السعادة والسرور إلى قلب المسلم، فعن ابن عباس -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «إن أحب الأعمال إلى الله بعد الفرائض إدخال السرور على المسلم»<sup>(4)</sup>. وليس إدخال السعادة يقتصر على الوجه المبتسم الذي يلقي به المسلم أخاه المسلم، بل بالعمل على قضاء دين أثقله أو حاجة مادية أو معنوية لم يتمكن من تحقيقها أو التفضّل عليه بالإكرام وحلاوة اللسان والإحسان إليه، فقد حدّث ابن المنكدر حديثاً رفعه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: "من أفضل العمل إدخال السرور على المؤمن: يقضي عنه ديناً، يقضي له حاجة، ينفس عنه كربة" قال سفيان: وقيل لابن المنكدر: ما بقي مما يستلذ؟ قال: "الإفضال على الإخوان"<sup>(5)</sup>.

14- تأمين الحصانة النفسية ونشر الطمأنينة بين أفراد المجتمع عن طريق الضمانة المادية للأفراد والعوائل، فالمال الذي يتركه الوارث لا ضريبة عليه بل يصل بكامله إلى ورثته، وأما الدين فسيتم وفاؤه من قبل

(1) البخاري، الجامع الصحيح، "كتاب المظالم"، ٥ (رقم ٢٣١٢)

(2) مسلم، الجامع الصحيح، "كتاب البر والصلة والآداب"، ١٥ (رقم ٥٨)

(3) ابن ماجه، السنن، "كتاب الحدود"، ٥ (رقم ٢٥٤٦)

(4) سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير الطبراني، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية)، "باب العين" ٧١/١١٠، (رقم ١١٠٧٩)

(5) أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: د عبد العلي عبد الحميد حامد، (الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م)، ١٠ / ١٣٠، (رقم ٧٢٧٤)

المسلمين أو بيت المال، وأما الأطفال والذرية غير القادرة على القيام بأعباء نفسها فعلى الإمام مسؤولية تنشئتها وتربيتها والصرف عليها حتى يبلغوا ويعتمدوا على أنفسهم، يقول عليه الصلاة والسلام «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالا ف لأهله، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فألى وعلَيَّ»<sup>(1)</sup>.

خاتمة: النتائج التي يمكن التوصل إليها من خلال البحث:

نجد أن تحكيم شرع الله في المجتمعات هي المقدمة الأولى لبناء حضارة إنسانية حقيقية عمودها الإنسان بشرائع فطرته، وكامل حقوقه من حق الحياة والحرية والعمل والمساواة والعدالة والسماحة، والاكتفاء الذاتي من التغذية والرعاية الصحية والجسدية.

إن تجنب الحكم الإسلامي وعدم الحكم به هو تجني على المجتمعات وظلم لها، فخالق كل شيء الذي خلق البشر بأدق تفاصيله هو الأدرى بمصلحة المجتمعات البشرية وما يناسبها من قوانين ومسلقيات.

قائمة المراجع:

1. ابن خزيمة، محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري. صحيح ابن خزيمة. تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي. عدد الأجزاء: ٤. بيروت، المكتب الإسلامي.
2. ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي. البداية والنهاية. تحقيق: عبد الله التركي. عدد الأجزاء: ٢١. دار هجر، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م.
3. البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي. الجامع الصحيح. المحقق: د. مصطفى ديب البغا، دمشق. عدد الأجزاء: ٧. دار ابن كثير، دار اليمامة، الطبعة الخامسة، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م.
4. الحميدي، عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله القرشي الأسدي الحميدي المكي. مسند الحميدي. تحقيق: حسن سليم أسد الداراني. عدد الأجزاء: ٢. دمشق، دار السقا، الطبعة الأولى، ١٩٩٦ م.
5. الدكتور حسن بن محمد سفر، "حقوق الإنسان وحرياته"، مجلة مجمع الفقه الإسلامي، ١٣ / ١، (٢٠١٥ م)، ٣٠٦.
6. الطبري، محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آية القرآن. تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، عدد الأجزاء: ٢٦. القاهرة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى.

(1) البيهقي، شعب الإيمان، ١٠ / ١٣٠، (رقم ٧٢٧٤)

7. المحاسبي، الحارث بن أسد المحاسبي. رسالة المسترشدين. تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. حلب - سوريا، مكتب المطبوعات الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ \ ١٩٧١م.
8. النووي، محيي الدين يحيى بن شرف النووي. رياض الصالحين. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.
9. سراج الدين، عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني. الباب في علوم الكتاب، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض. عدد الأجزاء: ٢٠. بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ \ ١٩٩٨م.
10. عبد الشافي محمد عبد اللطيف. السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي. القاهرة، دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.
11. مالك بن الحاج، عمر بن الخضر بن نبي. القضايا الكبرى. بيروت- لبنان: دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ \ ٢٠٠٠م.
12. محمد بن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي. المصنف في الأحاديث والآثار. تقديم وضبط: كمال يوسف الحوت. عدد الأجزاء: ٧. لبنان، دار التاج، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ \ ١٩٨٩م.
13. محمد رشيد بن علي رضا. تفسير المنار. عدد الأجزاء: ١٢. مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
14. محمد عبد العزيز بن علي الشاذلي الخوّلي، الأدب النبوي. بيروت: دار المعرفة، الطبعة الرابع، ١٤٢٣هـ.
15. محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي. مصابيح السنة. تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، محمد سليم إبراهيم سمارة، جمال حمدي الذهبي. عدد الأجزاء: ٤. بيروت - لبنان، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

## عملية الترجمة؛ منطقها وأسسها من منظور تأويلي

Translation process; Logic and Basics in the interpretive perspective

د. الحسين محمد ال مهديه/جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية

Dr. Alhussin Mohammed ALMAHDIA /King Saud University

### Abstract:

This research is within the framework of translatology, specifically addressing the translation process; The practical aspect of translation, which is still in my view, requires some explanation and clarification. This research deals with the translation process as a complex process that requires special skills that may not be available to most masters of foreign languages, and provides a detailed explanation of this process. The problem with studying is the lack of real understanding of the translation process, and hence the lack of familiarity with the concept, foundations, and principles of the process, which some consider to be a purely cultural linguistic process not free from treason. Understanding the concept of translation in general depends mainly on understanding the process of translation itself. Our main objective is to clarify the practical aspect of the translation process and to emphasize the role and importance of interpretative theory in translation. Ultimately, this research has scientific benefit from the point of view of a specialist in the field for all those interested in translation, including students, professors, and practitioners.

**Key-Words:** Translation process, Translation concept, Translation logic, Translation foundation, Translatology.

## ملخص:

يأتي هذا العمل ضمن إطار علم الترجمة، ويتناول بالتحديد عملية الترجمة؛ أي الجانب التطبيقي للترجمة، الذي مازال في نظري بحاجة لشيء من التوضيح. هذا العمل يتناول عملية الترجمة بصفحتها عملية معقدة تتطلب مهارات خاصة قد لا تتوفر لدى معظم متقني اللغات الأجنبية، ويقدم شرح مفصل لهذه العملية. تكمن مشكلة الدراسة في غياب الفهم الحقيقي لعملية الترجمة، وبالتالي غياب الإلمام بمفهوم وأسس ومبادئ هذه العملية التي يعتبرها البعض مجرد عملية لغوية تعتمد على الجانب الثقافي فقط ولا تخلو من الخطأ. فاستيعاب مفهوم الترجمة بشكل عام يعتمد في الأساس على فهم عملية الترجمة ذاتها. هدفنا الرئيسي هو توضيح الجانب التطبيقي في عملية الترجمة وتأكيد دور وأهمية النظرية التأويلية في الترجمة. هذا العمل في النهاية يحمل فائدة علمية من وجهة نظر مختص في المجال لجميع المهتمين بالترجمة من طلاب وأساتذة وممارسين.

الكلمات المفتاحية: عملية الترجمة، مفهوم الترجمة، منطق الترجمة، أسس الترجمة، علم الترجمة.

## مقدمة:

تختلف عملية الترجمة في تعريفها ومنطقها وأسسها باختلاف الإطار النظري الذي يحملها وهذا أمر طبيعي، فاللسانيين يرون أنها عملية اتصال لغوية تتطلب إلمام ثقافي فقط، ولا تتعدى كونها عملية نقل محتوى نص أو جملة أو كلمة ضمن سياق محدد من لغة إلى لغة أخرى. بينما علماء الترجمة يرون أنها عبارة عن عملية اتصالية تقوم على نقل رسالة نص مكتوب أو منطوق ضمن سياق محدد يحمل مقاصد ومعاني ذات أثر من لغة إلى أخرى، مع ضرورة أخذ المتلقي دائماً في الاعتبار وإيصال المعنى والمراد له بنفس الأثر.

وهنا تأتي أهمية التمييز بين التوجهين للتأكيد على أن عملية الترجمة ليست كما يتخيلها البعض مجرد نقل نص أو معاني كلمات من لغة إلى أخرى، فالأمر صعب ومعقد وحساس أيضاً في بعض المواقف. فلو أخذنا فقط على سبيل المثال من يقوم بترجمة المؤتمرات الدولية السياسية؛ الاتفاقيات والمعاهدات والحوارات الثقافية والدينية بين الدول مختلفة اللغات والثقافات والأديان لوجدنا أن الترجمة هي العنصر الأهم المتمم لتلك المؤتمرات. إذن الترجمة لا يمكن لأحد أن يتجاهل دورها وأهميتها، ولكن ربما يجهل الكثير الجانب التطبيقي الحقيقي لهذه المهنة، لأن الترجمة كعملية (اتصالية، لغوية، معرفية، ثقافية، ذهنية، تقنية) تقوم على أسس وفقاً لنظرية محددة وفي إطار منطق واضح لا يمكن تجاوزه. الترجمة هي عمل ذهني شاق لا يتم بالشكل المطلوب إلا من خلال إلمام المترجم بعمله الترجمي من عدة جوانب رئيسية مختلفة؛ معرفية، ثقافية، لغوية، اجتماعية ومهنية.

ومهما كان مجال العمل، فالمترجم لا بد أن يكون لديه إلمام تام مسبق بتلك الجوانب التي نريد أن نوضحها ونبرز حقيقتها، لنرى لماذا يصعب إتمام عملية الترجمة بشكل مهني صحيح إلا من خلال تلك الجوانب الهامة التي نسميها "أسس الترجمة" Fundamentals of translation. هناك عدد من المترجمين لا يدركون أهمية الجانب التطبيقي للنظرية التأويلية في الترجمة

ويعتقدون بأن هذه النظرية برمتها ليس لها أي دور في كفاءة المترجم وقدرته على إتمام عملية الترجمة بنجاح. هذا الاعتقاد للأسف يأتي في الغالب على غير أساس منطقي واضح، بل دون الغوص في أعماق هذه النظرية لمعرفة مضمونها وتمييزها على الأقل عن غيرها من النظريات الأخرى في الترجمة.

### 1. مفهوم الترجمة:

قبل الحديث عن الترجمة كعملية تطبيقية، من الضروري العودة أولاً للمفهوم النظري العام للترجمة Translation concept وتصحيح بعض المعلومات الخاطئة. فالترجمة بمعناها الحقيقي هي أمانة وليست خيانة كما يقول البعض أو كما يعتقد البعض من خلال تكرار عبارة "المترجم خوان" بصيغة المبالغة في الخيانة تأييداً للمثل الإيطالي "Traduttore traditore"، بل هي وسيلة تواصل هامة جداً تقوم على عدة مبادئ يجب توفرها في المترجم. هذه المبادئ هي التي تؤكد دور وأهمية الأمانة في الترجمة وترفض الخيانة بجميع جوانبها وأشكالها، وهي: أولاً، القدرة على الترجمة، ويكون ذلك إما من خلال التأهيل المهني الجيد أو من خلال الخبرة الطويلة في هذا المجال والممارسة الفعلية لمن لديه إلمام تام بلغات العمل. ثانياً، وعي المترجم للمسئولية التي توكل له في هذا المجال؛ أي الولاء وتحمل المسئولية. ثالثاً، الأمانة المطلقة من قبل المترجم في نقل الرسالة كما هي، حيث تركز الترجمة في المقام الأول على الأمانة في نقل المعنى ومراد الكاتب أو المتحدث الأصلي، ولا تركز على نقل المعاني اللغوية كما يعتقد البعض إلا في سياقات محددة وضيقة جداً تتضمن مصطلحات تقنية ليس للمترجم خيار بديل عن إيجاد مطابقتها في اللغة الهدف؛ مصطلح Translatology في الإنجليزية على سبيل المثال المطابق له في العربية هو "علم الترجمة"، مصطلح Language Sciences المطابق له في العربية هو "علوم اللغة"، مصطلح Criminology المطابق له في العربية هو "علم الجريمة". والمقصود هنا بالمصطلحات التقنية أي التي يوجد لها مقابلات واضحة وثابتة في اللغة الهدف ولا تتغير معانيها بتغير السياق كما هو الحال بالنسبة لعدد كبير من المفردات التي تتغير معانيها بمجرد تغير سياقاتها؛ كلمة Culture في الفرنسية تأتي في العربية حسب سياقها بمعنى "ثقافة" أو "حضارة"، وتأتي أيضاً بمعنى "حراثة" أو "زراعة".

وقد جاء في هذا الصدد تأكيد علماء الترجمة بأن هناك ما يسمى بالترجمة اللغوية Linguistic translation وهي الترجمة التي تركز على نقل المعاني اللغوية لجميع مكونات وعناصر النص الأصلي حسب المطابقات اللغوية الصرفة في اللغة الهدف، وتتم من خلال إيجاد المطابقات في اللغة الهدف، وهذا ما يمكن للألة القيام به عبر نظام الترجمة الآلية Machine Translation System. إلا أنه يوجد في المقابل ما يسمى بالترجمة التأويلية Interpretative translation وهي الترجمة التي تركز على المعنى العام لرسالة النص الأصلي وأثرها والمراد فيها، وتتم من خلال إيجاد المكافئات في اللغة الهدف حسب سياق النص الأصلي. وضمن هذا الإطار جاء تأكيد السيدة ماريان ليديريير بأن "الترجمة اللغوية هي ترجمة بالتطابق" بينما "الترجمة التأويلية هي ترجمة بالتكافؤ"<sup>1</sup>، وصنفت الترجمة اللغوية كمستوى أول في عملية الترجمة يركز على مفردات النص الأصلي ومطابقتها اللغوية في النص الهدف.

<sup>1</sup> Marianne LEDERER, "La traduction aujourd'hui : Le modèle interprétatif", Paris, Hachette FLE, 1994, p.50.

في ظل هذا التمييز والإيضاح المختصر لمفهوم الترجمة الصحيح علينا التطرق لأهم وأبرز مفاهيم النظرية التأويلية، انطلاقاً من مفهوم عملية الترجمة ودور هذه النظرية في توضيح منطوق وأسس ومبادئ هذه العملية. هذا من أجل توضيح المقصود من عملية الترجمة بشكل عام وكشف الإجراءات العملية الدقيقة التي تأتي ضمن هذا المفهوم. من أهم الدراسات السابقة في هذا الجانب ما تناوله أبرز علماء الترجمة؛ دانيكا سيلسكوفيتش وماريان لوديرير بعنوان "Interpréter pour traduire" التأويل سبيلاً إلى الترجمة، الذي ركزنا من خلاله على إبراز دور وأهمية التأويل في الترجمة والترجمة الشفهية. بالإضافة إلى كتاب فورتيناتو إسرائيل وماريان لوديرير بعنوان "La théorie interprétative de la traduction; convergences mises en perspective<sup>2</sup>" النظرية التأويلية في الترجمة؛ مقاربات في منظورها الصحيح، الذي جاء مؤكداً لأهمية تلك النظرية ودورها الفعال في الترجمة الشفهية على وجه الخصوص.

**1.1. تعريف عملية الترجمة:** تأتي كلمة "عملية" هنا نسبة إلى كلمة "عمل" وأصلها الفعل "عمل". جمعها "عمليات"، وهي اسم مؤنث يقصد به جملة أعمال وإجراءات تطبيقية، وتعني كل عمل ينفذ من أجل تحقيق هدف وغاية نهائية وإحداث أثراً خاصاً. تستخدم هذه الكلمة في سياقات متعددة ضمن مجالات مختلفة، إلا أنها تحمل نفس المعنى في جميع تلك السياقات المختلفة. نقول على سبيل المثال: عملية لغوية، عملية مالية، عملية عسكرية، عملية جراحية،... إلخ، ونقول أيضاً "عملية ترجمة" أو "عملية الترجمة".

يعرف اللسانيين الترجمة بشكل عام على أنها عملية لغوية Linguistic process تتطلب إلمام ثقافي، بينما يأتي تعريف علماء الترجمة لها على أنها بالإضافة إلى كونها عملية تقوم في الأساس على الإلمام التام بلغات العمل وثقافتها فهي عملية اتصال معرفي Cognitive communication process لا تعتمد فقط على الجانبين اللغوي والثقافي، بل تقوم أيضاً على جوانب أخرى تخصصية لا تقل عنها أهمية. بالتأكيد، هذا أمر طبيعي لأن علماء اللغة يرون أن الترجمة فرع من علم اللسانيات، ويرى علماء الترجمة أنها علم بحد ذاته مستقل عن علم اللسانيات بأسسه ومبادئه ونظرياته؛ أي "علم الترجمة" الذي يقوم على جانبين أساسيين للترجمة هما: الجانب النظري والجانب التطبيقي، ويتناول جميع الدراسات اللغوية والتاريخية والنقدية للترجمة.

يرى علماء اللغة أمثال فيدروف Anderi Fedorov، جورج مونان George Mounin، بول فيناي Paul Vinay وجان داربلنيتيه Jean Darbelnet وغيرهم أن عملية الترجمة هي في الأساس عملية لغوية وأن نظريات الترجمة يجب أن تكون مبنية على أسس علم اللسانيات، وأن الترجمة يجب أن تدرج ضمن موضوعات هذا العلم. وقد جاء رأي السيد بيتر نيومارك Peter Newmark مؤيداً لهذه النظرية اللغوية في الترجمة، إلا أنه أشار إلى ضرورة التركيز على بعض معايير تحليل النص كالسياق والأسلوب والنية والمقصد أو المراد في النص الأصلي وكذلك في الترجمة. من هنا جاءت الانطلاقة الفعلية لنظرية الترجمة التي تؤكد ضرورة

<sup>1</sup> Seleskovitch Danica et Lederer Marianne, Interpréter pour traduire, Collection Traductologie 1, 3<sup>ème</sup> Edition, Didier Erudition, Paris 1993.

<sup>2</sup> Fortunato Israël et Marianne Lederer (Eds.), La théorie interprétative de la traduction I, II, III, Paris – Caen, Minard Lettres Modernes, Cahiers Champollion, 2005.

تكامل طريقتين أساسيتين في الترجمة: الأولى تقوم على إيصال المعنى الدلالي وفقاً للسياق ضمن إطار قواعد اللغة الهدف، الثانية تقوم على إيصال نفس تأثير النص الأصلي كما هو إلى المتلقي في اللغة الهدف. وهنا بدأ ظهور ما يسمى "الترجمة بالتطابق" Translation by correspondence و"الترجمة بالتكافؤ" Translation by equivalence وضرورة الربط بين اللغة والمعنى والفكر والثقافة، وجاء تأكيد ارتباط الترجمة بنظرية المعنى Theory of meaning نظراً لعدم وجود تطابق تام بين اللغات المختلفة. وقد كانت النواة الحقيقية لنشأة عدة نظريات في الترجمة سبقت النظرية التأويلية؛ التفسيرية، الدلالية، التداولية، الأسلوبية، النصية، الوظيفية، الغائية، التكافؤية. هذه النظريات والمقاربات جميعها جاءت دراساتها ضمن إطار موضوعات علم اللسانيات، وترتبط بالجانب التحريري للترجمة على وجه الخصوص. وقد جاء تعريف الترجمة بالنسبة لعدد من علماء اللغة على أنها عملية تواصل لساني صرف، في حين أثبت علماء الترجمة بأنها عملية أبعد من أن تكون مجرد عمل لساني وكان ذلك مبنياً على الجوانب الواقعية التطبيقية في الترجمة.

## 2. عملية الترجمة ونظرية المعنى:

جاءت عملية الترجمة في نظرية المعنى مختلفة تماماً عن عملية الترجمة في النظريات اللغوية، فقد ركزت على جوانب عدة لم تكن مأخوذة في الاعتبار من قبل، هي: الفهم واستخلاص المعنى Deverbalization وإعادة إنتاج المعنى Re-verbalization من خلال سياقات النص المختلفة؛ اللغوي، غير اللغوي، والمعرفي، بالإضافة إلى إعادة الصياغة Re-expression في اللغة الهدف. وقد ارتبطت نظرية المعنى في بدايتها بالترجمة الشفهية وتطورت حتى شملت الترجمة التحريرية ومن ثم استطاع علماء الترجمة Translation specialists تأكيد وجود نظرية خاصة في الترجمة هي النظرية التأويلية، التي نشأت من خلالها علم جديد مستقل عن علم اللسانيات هو علم الترجمة أو دراسات الترجمة. وهذا يعني أن الترجمة "أصبحت مجالاً مستقلاً بشكل واضح منذ السبعينيات الميلادية"، وأن مفهوم علم الترجمة ظهر لأول مرة بواسطة العالم الكندي بريان هاريس Brian Harris في عام 1972. للوصول إلى تعريف واضح للترجمة، نأخذ في البداية الكلمات الأساسية التي بدأت بها أغلب التعريفات التي تم الرجوع إليها وهي: نقل Transfer، تحويل Conversion، تفسير Explanation، إعادة صياغة Paraphrasing، إلخ. جميع هذه الكلمات وردت في تعريفات مختلفة لمفهوم الترجمة، وأغلبها جاءت متبوعة بكلمة "نص" Text؛ نقل نص، تحويل نص، تفسير نص، إعادة صياغة نص، وهكذا. هذا يعني أن محور عملية الترجمة هو النص سواء مكتوب أو منطوق. ولكن، هل يهمننا في هذه العملية النص كما هو بشكله الأصلي في اللغة المصدر أم العناصر الداخلية التي يحتوي عليها؟ ما هي عناصر النص التي يكون التركيز عليها في عملية الترجمة؟ وما الذي يهمننا بالتحديد في تلك العناصر؟

عندما نتحدث عن عناصر النص فهذا للتأكيد بأن أي نص يقوم على عناصر أساسية لا يمكن إغفالها أو تجاهلها في عملية الترجمة، فكل نص عبارة عن أسلوب لغوي يقدم رسالة ذات معنى عام ويحمل ألفاظ وأفكار ومعاني لغوية وصور بيانية وخيالية وعاطفية تأتي من خلال إيقاع موسيقي هو الذي يحدد جمال النص من عدمه. وقد جاء تعريف السيد جان دليل Jean Delisle للترجمة ضمن هذا الإطار على النحو التالي: "الترجمة عبارة عن عملية تحويل بين اللغات تقوم على تأويل معنى

نص مصدر وإنتاج نص هدف من خلال إحداث علاقة تكافؤ بين النصين وفقاً للمعايير المرتبطة بعملية الاتصال وضمن حدود القيود المفروضة على المترجم<sup>1</sup>. الترجمة هي عملية لغوية تواصلية يتم من خلالها نقل رسالة تحمل معنى أو عدة معاني ومقاصد مختلفة تأتي عبر نص مكتوب أو منطوق في سياق محدد من لغة مصدر إلى لغة هدف. الترجمة هي عملية تواصلية في المقام الأول، ونستطيع القول بأنها عملية تواصلية بين اللغات والثقافات.

### 3. منطوق عملية الترجمة:

بلا شك أن تطبيق المنطق في جميع الدراسات يجعلنا دائماً نعود إلى القواعد المجردة والأسس الثابتة التي يجب علينا الانطلاق من خلالها لمعرفة طرق الاستدلال الصحيح. لذلك يجب علينا في البداية العودة لمنطق الترجمة، حتى نتتمكن من الحديث عن مفهومها وأسسها كما أشرنا في العنوان. فما هو منطق الترجمة الذي يجب علينا الانطلاق من خلاله لفهم واستيعاب مبادئ وأسس عملية الترجمة؟

ليكون للترجمة وجود لا بد أن يكون هناك عملية اتصال Communication process تأتي من خلال موقف اتصالي Communicative situation يحدث بين أفراد أو جماعات ذوي لغات مختلفة ويصعب فهم بعضهم البعض دون الترجمة. إذن عملية الترجمة تتطلب أولاً وجود لغتين؛ الأولى لغة المرسل وتسمى "لغة مصدر Source language" والثانية لغة المتلقي وتسمى "لغة هدف Target language"، كما تتطلب ثانياً وجود سياق اتصالي Communicative context بين "مرسل" يحمل رسالة مكتوبة أو منطوقة بلغة و"مستقبل" لا يفهم تلك اللغة، وبالتالي يلزم نقلها من المرسل وإيصالها للمتلقي بلغة أخرى يدركها ويفهمها. هذا ما يجب معرفته في المقام الأول، حتى لا نذهب في اتجاه لا يوجد فيه ترجمة. هذا هو المنطق الواضح لعملية الترجمة، وهنا تطرح سؤاليين أساسيين: ما المقصود بعملية الاتصال؟ وكيف تتم؟

عملية الاتصال Communicative process بشكل عام هي عملية يتم من خلالها إيصال أو تبادل رسائل معينة تحمل آراء أو أفكاراً أو معلومات أو مشاعر بين طرفين أو أكثر بهدف الوصول إلى فهم واستيعاب لتلك الرسائل لدى كل الأطراف، وتتم من خلال موقف اتصالي يحمل رسالة محددة في لغة ما بين طرفين الأول "مرسل" Sender والثاني "مستقبل" Receiver بهدف إيصال أو تبادل معارف أو معلومات. هذه العملية لا يمكن أن تتم إلا من خلال اللغة؛ سواء كانت مكتوبة أو منطوقة أو رموز وإشارات. وهنا يأتي توضيح الفرق بين عملية الاتصال أحادي اللغة وعملية الاتصال متعدد اللغات لمعرفة دور الترجمة الحقيقي في هذه العملية.

1.3. عملية الاتصال أحادي اللغة: عملية الاتصال أحادي اللغة تتم من خلال موقف اتصالي يحدثه أطراف مختلفة ضمن إطار نظام لغوي واحد في سياق محدد، وتقوم في الأساس على تبادل معلومات ومعارف بين تلك الأطراف بهدف استيعاب الرسائل المتبادلة والتفاهم. بينما عملية الاتصال متعدد اللغات هي التي تتم من خلال الترجمة، وهي عملية تجمع نظامين

<sup>1</sup> Delisle Jean, "La traduction raisonnée: Manuel d'initiation à la traduction professionnelle de l'anglais vers le français", Collection Pédagogie de la Traduction, 2<sup>ème</sup> édition, Les Presses de l'Université d'Ottawa, 2003, p. 63 (traduit par nous-mêmes).

لغويين مختلفين في موقف اتصالي واحد وسياق محدد من خلال نص يحمل رسالة (ذات معنى) مكتوبة أو منطوقة. هذه العملية تقوم على ثلاثة أطراف؛ المرسل، المترجم، المستقبل. المترجم هنا هو محور هذه العملية وهو العنصر الأساسي لنجاحها؛ فمتى ما كان المترجم متمكناً فإن العملية تتم بشكلها الطبيعي وعلى أكمل وجه دون أي عوائق أو صعوبات في الفهم. وهنا سنرى كيف تتم عملية الاتصال متعدد اللغات من خلال الترجمة.

2.3. عملية الاتصال متعدد اللغات: عملية الاتصال من خلال الترجمة هي ما يسمى في علم الترجمة بعملية الترجمة "Translating operation" أي بعبارة أخرى أكثر وضوحاً واستخداماً "Translation process"، التي سنتحدث عنها بشكل مفصل. هذه العملية تقوم على أسس علمية واضحة تأتي ضمن إطار علم الترجمة؛ أي العلم الذي يعني بدراسات الترجمة النظرية والتطبيقية.

1.2.3. أسس عملية الترجمة: هناك أسس واضحة تقوم عليها عملية الترجمة؛ يمكن إيجازها في الإلمام التام بلغات العمل "المعرفة اللغوية Linguistic knowledge"، الإلمام بالجانب الثقافي "المعرفة الثقافية Cultural knowledge"، الإلمام بالموضوع المراد ترجمته بالتحديد "المعرفة الدقيقة للموضوع المتناول Relevant knowledge of the subject matter"، والتركيز من خلال ترجمة بلاغية على نقل الأفكار "الترجمة التأويلية Interpretative translation"، وعدم الترجمة الحرفية أو اصطناع ما يسمى بالمحسنات البديعية تفادياً للخروج عن المراد في النص الأصلي أو الخروج عن الهدف المنشود من الترجمة.

1.1.2.3 المعرفة Knowledge: يلعب الجانب المعرفي دور هام جداً في الترجمة ويعتبر من وجهة نظر جميع المنظرين في الترجمة (سواء لغويون أو علماء ترجمة) أول وأهم أسسها. ويمكن تعريف مفهوم المعرفة على أنها استيعاب وفهم وإدراك للحقائق من خلال المعلومات، وهي تمثل عنصر هام جداً في عملية الترجمة يمكن من خلاله ربط الموضوع المتناول مع العالم من جهة ونتيجة استخدامه من جهة أخرى. تعد المعرفة بالنسبة للمترجم عنصر ضروري لا غنى عنه، لأن الأشياء يختلف استخدامها من لغة لأخرى وبالتالي فالأمر يتطلب تغيير الشكل. وهذا بالتأكيد لا يمكن أن يتم إلا من خلال المعرفة؛ التي تشمل ثلاث جوانب أشرنا إليها من قبل في هذا السياق، هي: المعرفة اللغوية، المعرفة الثقافية، والمعرفة الدقيقة بالموضوع المتناول.

يعتبر الإلمام التام بلغات العمل أمر ضروري لا يمكن الاستغناء عنه أو تجاوزه في الترجمة. وهنا يجب التمييز بين اللغة الأجنبية كلغة فهم واستيعاب وتواصل فقط لأي شخص واللغة الأجنبية كلغة عمل ترجمي يتجاوز حدود الفهم والاستيعاب والتواصل لدى المترجم، فالعمل الترجمي يقوم في الأساس على إعادة صياغة رسالة ومراد الكاتب أو المتحدث في اللغة المصدر وفقاً لدرجة وعي ثقافة ومعرفة واستيعاب المتلقي لها في اللغة الهدف بهدف إيصالها كما هي دون أي زيادة أو نقصان. إذن المعرفة اللغوية التامة لا تكفي إطلاقاً لإتمام عملية الترجمة، بل هناك ما يسمى في علم الترجمة "المعرفة ما فوق اللغوية" Extra-linguistic knowledge أو الثقافية وتعتبر أيضاً في أغلب الحالات والمواقف أمر ضروري لا بد منه، ونقصد هنا الاطلاع الواسع على جميع جوانب الحياة ومتابعة الأحداث اليومية وكل ما هو جديد في العالم. أما المعرفة الدقيقة بالموضوع المتناول

في الترجمة والإمام المسبق به (المعرفة التخصصية) فتعتبر أهم ما يميز العمل الترجمي عن العمل اللغوي الصرف، فهي التي تساعد المترجم على إتمام عملية الترجمة بنجاح.

#### 4. عملية الترجمة؛ منظور تأويلي:

ترى السيدة كريستين دوريو Christine Durieux في هذا الصدد أن هناك ثلاث مراحل أساسية لإتمام عملية الترجمة<sup>1</sup>؛ مرحلة استيعاب وفهم رسالة النص الأصلي، مرحلة الانسلاخ اللغوي، ثم مرحلة إعادة الصياغة في اللغة الهدف. هذا يعني أن عملية الترجمة تتم من خلال ثلاث مراحل أساسية: المرحلة الأولى وهي مرحلة الفهم Understanding؛ أي فهم النص في اللغة المصدر، ولا يمكن أن يكون إلا من خلال المعرفة اللغوية التامة، المعرفة الثقافية والمعرفة الدقيقة للموضوع المتناول. المرحلة الثانية وهي مرحلة تحليل وفك رموز النص الأصلي Deverbalization؛ أي تأويل مراد الكاتب أو المتحدث وإيجاد المكافئ له في اللغة الهدف. هذه المرحلة هي التي تميز النظرية التأويلية عن النظرية اللغوية في الترجمة؛ وهي المرحلة التي من خلالها يمكن تحصيل معنى رسالة النص الأصلي. أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة إعادة الصياغة في اللغة الهدف Re-expression؛ والمقصود هنا صياغة أفكار ومراد الكاتب أو المتحدث في اللغة الهدف وفقاً للسياق مع الأخذ في الاعتبار متلقي الرسالة. وهنا يمكننا التأكيد أن نجاح عملية الترجمة يعتمد في المقام الأول على فهم المتلقي لرسالة النص الأصلي.

1.4. الموقف والسياق في عملية الترجمة: قد يصعب على البعض من غير المختصين في علوم اللغة والاتصال التمييز بين الموقف والسياق، إلا أنه يوجد اختلاف واضح بين هذين العنصرين الأساسيين في عملية الاتصال بشكل عام. هذا الوضوح يتلخص في أن الموقف أشمل من السياق، وهذا يعني أن السياق يأتي دائماً ضمن موقف اتصالي عام وقد تأتي عدة سياقات ضمن موقف اتصالي واحد. يعتبر الموقف من أهم عناصر الاتصال التي تغير استخدامات كلمات اللغة وتحدد معانيها من خلال نص مكتوب أو منطوق، لأنه يفرض على الكاتب أو المتحدث استخدام كلمات يفهمها الجميع. الموقف هو المعيار الأساسي لعملية نقل الكلمات في نص. وتأتي الترجمة الآلية في هذا السياق كمثال يؤكد أهمية الموقف في الترجمة، فآلة الترجمة رغم تطورها الهائل لا يمكن أن تغني عن وجود المترجم البشري. ولكنها مع ذلك تستطيع أن تتطور أكثر في اللحظة التي ينجح المترجم في تهيئتها وتزويدها بالمعلومات والملاحظات الكافية وفقاً للمواقف العديدة المختلفة. من أهم أنواع الموقف في عملية الترجمة يأتي في البداية الموقف المعرفي الذي يتمثل في محتوى بداية أو مقدمة نص أو خطاب تشكل من خلاله معارف يمكن أن تساعد على فهم الأجزاء التالية في النص. وهنا يأتي دور وأهمية الذاكرة و"الذاكرة قصيرة المدى" Short term memory بالتحديد في عملية الفهم، التي سنتحدث عنها لاحقاً.

1.1.4. السياق؛ أنواعه وأهميته في عملية الترجمة: يقول بعض اللسانيين أن السياق يمكن أن يكون مرادف للموقف، وهنا يجب التوضيح أن المقصود هو "السياق اللغوي" بالتحديد وليس السياق بشكل عام، وتأتي استخداماته غالباً ضمن

<sup>1</sup> Durieux Christine, L'opération traduisante entre raison et émotion, Meta, 52 (1), 2007, 48 – 55. <https://doi.org/10.7202/014720ar>

إطار الحياة اليومية. السياق بدون شك يلعب دور هام جداً وأساسي في الوصول إلى معنى رسالة أي نص، فكل لغة تحتوي على كلمات تختلف معانها باختلاف السياق. في الترجمة، السياق هو المحرك الأول لاختيار الكلمات المناسبة أثناء إعادة الصياغة في اللغة الهدف. وقد أكدت النظرية اللغوية في الترجمة على دور وأهمية السياق في عملية الترجمة، الأمر الذي أيدته بشكل كبير النظرية التأويلية في الترجمة، التي ترى أنه لا يمكن تحديد معاني الكلمات خارج السياق، ولا يمكن أن تتم عملية الترجمة إلا من خلال تناول نص ضمن سياق محدد في لغة. ليس هذا فقط، بل لا يمكن تغيير سياق النص الأصلي إلا إذا أردنا كترجمين تغيير معنى رسالته في اللغة الهدف، وهذا يعتبر خيانة حقيقية في الترجمة.

السياق اللغوي Linguistic context هو أول أنواع السياق، ويقصد به الإطار المحيط بالكلمات والجمل ضمن نص مكتوب أو منطوق، والذي يشكل رابط بين دلالاتها. وهو عبارة عن عدد من العناصر والوحدات لغوية أو كلمات تأتي في تساق مع بعضها ضمن إطار معنى محدد يأتي في نظام جملة أو جمل محددة. من خلال هذا النوع من السياق يستطيع المترجم فهم دلالات الكلمات والجمل. السياق المعرفي (الإدراكي) Cognitive context هو عبارة عن عدد من المعطيات تأتي ضمن الظروف المحيطة بالنص أو الخطاب والتي تساعد على فهمه واستيعابه. ويقصد به كل ما يصل إلى ذهن المتلقي ويستطيع إدراكه في اللغة الهدف من أفكار ومعلومات. وقد جاء تعريف مفهوم هذا النوع من السياق في عام 1984 بواسطة هاموند Hammond وبيرنارد Barnard مفسراً لنتائج بعض التجارب، مؤكداً أن النظام المعرفي لدى البشر بشكل عام قابل للتغير مع الخبرة ومرور الوقت وحسب المواقف المختلفة. السياق اللفظي Verbal context، وينقسم إلى فرعين رئيسيين هما: السياق اللفظي الفوري والسياق اللفظي الموسع. فكل لغة تحتوي على مفردات تختلف معانها باختلاف السياق، إلا أنه من خلال السياق اللفظي الفوري يمكن لنا تحديد معانها الفعلية. السياق اللفظي الفوري هو الذي من خلاله يمكن معرفة مدى قدرة استيعاب الذاكرة الفورية (قصيرة المدى) عند الشخص للمفردات بشكل عام وسرعة تذكرها بشكل فوري. وهو يمثل في الترجمة التحريرية على سبيل المثال الحضور الفوري للكلمات عند المترجم. وتؤكد لنا الدراسات السابقة للسياق اللفظي الفوري أن تعددية معاني الكلمات تعد مسألة لغوية بحتة ليس لها علاقة بالكلام. فمن الطبيعي أن الكلمات عندما تؤخذ بمعزل عن السياق فإنها تعطينا معاني مختلفة ولا يمكن أن تعطينا معاني واقعية واضحة وثابتة. هذا يعني أن قضية تعددية المعاني تنتهي بمجرد استخدام الكلمات في سياقات واضحة، وأن تحرير الكلمات من معانها اللغوية وأخذها في سياقها الحقيقي المحدد يسهل عملية الفهم لرسالة النص كاملة ويساعد على الاستيعاب الدقيق لمجمل الصور والأشكال اللغوية المختلفة بشكل عام.

السياق اللفظي الموسع (Verbal context) هو مجمل المعلومات التي تساعد المتحدث على الكلام أثناء إلقاء الخطاب، ويمثل الأفكار الناتجة من خلال الخطاب. ويتسع هذا النوع من السياق أثناء الحديث حتى يصل المتحدث والسامع إلى درجة عالية من الاستيعاب لمجمل النص ومن ثم فهم معنى رسالة النص بشكل تام، وهذا في الحقيقة هو ما يهمننا في المقام الأول لإتمام عملية الترجمة. سياق الموقف Situational context، ويقوم على البيئة المحيطة التي يأتي فيها النص؛ أي جميع العناصر الغير لغوية المحيطة بالنص، ويمثل جميع عناصر الإدراك الحسي "اللغوي" المصاحبة للخطاب.

وهو بصيغة أخرى مجمل المعلومات الواضحة المقدمة من خلال الخطاب، أي الإطار المادي المتمثل في المكان والمشهد العام لذلك المكان بكل ما فيه (قاعة، صالة، مدرج، ساحة، ... إلخ)، الإشارات والإيماءات الصادرة من المتحدث والمتلقين. كل هذا يمثل سياق الموقف، ويلعب دور هام جداً في فهم المعنى العام لرسالة الخطاب والمعنى المراد فيها. ففي حالة عدم وضوح سياق الموقف قد يحدث في بعض الحالات تشتيت الانتباه وعدم قدرة على التركيز من قبل المتلقي، وعلى العكس تماماً فعندما يكون واضحاً ومحددًا فإنه يسهل استيعاب وفهم المعنى المراد للمتحدث أو الكاتب. وهذا يؤكد أن سياق الموقف هو الذي في أغلب الحالات يحدد المعنى.

2.4. الفهم في عملية الترجمة: يستخدم مصطلح الفهم كما هو واضح في "قاموس علم النفس" *Dictionnaire de psychologie* للإشارة إلى حدث لشيء جديد ونتيجة ذلك الحدث<sup>1</sup>. بينما يذكر السيد كنتش Kintsch في كتاب "الذاكرة والفهم" *Mémoire et compréhension* أن هذا المصطلح عبارة عن إجراء قابل للتغير بشكل عجيب ويتأثر بكل مرونة بالسياق<sup>2</sup>. يرى بياجيه Piaget في هذا الصدد أنه يمكن لنا الفهم ضمن إطار ما يسمى بالمخططات الذهنية "Schemes" أو الهيكل الذهني الذي يمكن من خلاله دمج المؤثرات الخارجية والداخلية التي تبدو أقل أو أكثر تشابه، فالملائمة هنا تقوم على تكييف المخططات الذهنية بما يتوافق مع المواقف الخاصة. وبالتالي فإنه يكون من السهل جداً استيعاب نظام الفهم "Understanding" والتكيف "Adaptation" أثناء دراسة ردود الفعل الأولية للمولود على سبيل المثال. لا ننسى أن آلية الحفاظ تتم دائماً بعد التفكير السابق لحدث أو نشاط ردة فعل تلقائية أو لا إرادية، فالقدرة على أخذ الأشياء تشكل لحظة هامة في تطور الطفل، لأنه يكتشف تدريجياً المحيط الذي حوله من خلال الحركة. وعندما نراقب حركاته نلاحظ أنه يكتشف الأشياء التي يتمكن من أخذها أو امتلاكها بعد عدة محاولات. هذه المحاولات المتكررة تسمح له في النهاية باستيعاب مفاهيم الأشياء التي يمكن له أخذها، ومن ثم يصل إلى فهم الفرق بين "كبير" و "صغير"، والشيء الذي يمكن أخذه بيد واحدة أو بكلتا يديه أو بكل بساطة بأصبعيه فقط، ومن ثم فإنه يبرهن آلية الحفاظ لديه حسب بعد ووزن الأشياء. في حين أن آلية الفهم هي أكثر صعوبة في التمييز لأنه لا يدرك ذلك حقاً. الشيء المهم بالنسبة للمترجم هو وضوح هذه الطريقة اللاواعية في الفهم، التي يمكن أن تتم من خلال ما يسمى بالتبسيط الذاتي. ففيما يتعلق بالمواضيع التقنية على سبيل المثال التي يفتقد فيها لبعض المخزون المعرفي، فإنه يلزم شرحها. هذا يعني أنه يصعب على المترجم أحياناً فهم بعض الأشياء الغريبة التي يجهلها، ويجب عليه في هذه الحالة إعادة ربط تلك الأشياء الجديدة والغير مفهومة بالأشياء القديمة المعروفة. هذه الطريقة هي التي تكون عملية الفهم لديه، ونأخذ كمثال عبارة "I am an unhyphenated". هذه العبارة لن يكون لها أي معنى بالنسبة لمن يجهل أن بعض الأشخاص في كندا على وجه الخصوص يقولون "أنا فرنسي كندي" *I am a French-Canadian*، والبعض يقولون أيضاً "أنا إنجليزي كندي" *I am an Anglo-Canadian*. هذا المثال يؤكد أنه في حالة عدم معرفة معنى كلمة "unhyphenated" فإنه لا يعني أن المسألة تتعلق بالفهم، لأنه حتى في حالة معرفة معنى هذه الكلمة لا بد من معرفة الموقف لنتمكن من فهم المعنى المراد. يمكن تعريف الفهم على أنه عبارة

<sup>1</sup> Roland Doron et Françoise Parot, « Dictionnaire de psychologie », P.U.F., Paris, 2003.

<sup>2</sup> Nathalie Blanc et Denis Brouillet, « Mémoire et compréhension : Lire pour comprendre », in Press Editions 2003, p. 80.

عن عملية تفاعلية لمتلقي رسالة نص مكتوب أو منطوق تحمل معنى أو عدة معاني في سياق محدد، ويتميز من خلال المدخلات اللغوية وتدخل السياق من خلال مرحلتين؛ الأولى هي مرحلة البناء والثانية هي مرحلة الدمج. هذا يؤكد استحالة الترجمة في حالة غياب الفهم؛ فعملية الترجمة تعتمد بشكل أساسي على مرحلة الفهم. هذه المرحلة في الترجمة هي التي يمكن للمترجم أن ينطلق من خلالها في أداء مهمته أو يفشل. ونؤكد هنا أن الفهم يعتبر ثالث أسس الترجمة، أما على مستوى عملية الترجمة فإنه يعتبر أولى مراحلها والأكثر صعوبة خاصة في الجانب الشفهي؛ الترجمة الفورية بالتحديد (Simultaneous interpretation). في هذا الصدد يأتي الحديث عن الذاكرة بصفتها المركز الرئيس للاستيعاب والفهم عند البشر بشكل عام لمعرفة دورها في عملية الفهم وأهميتها بالنسبة للمترجم.

**1.2.4. الذاكرة ودورها في عملية الفهم:** الذاكرة بمفهومها العام هي القدرة على الحفظ والتذكر. ويمكن تعريفها على أنها عبارة عن القدرة على امتلاك وحفظ وإعادة إنتاج المعلومات، أي القدرة على تثبيت الذكريات وحفظها وتذكرها. هذا يعني أن الذاكرة تتميز بأربع أشياء: التثبيت، الحفظ، التذكر وإعادة الطرح أو التطبيق. وترتبط كل هذه الأشياء ارتباطاً مباشراً بالفهم ومن ثم بما يسمى نقل المراد من لغة إلى أخرى (عملية الترجمة). وتعتبر الذاكرة عملية معقدة وهي تمر بثلاث مراحل؛ مرحلة التعلم، مرحلة تخزين أو حفظ المعلومات، مرحلة إعادة الطرح أو الإرجاع (الاستدكار والاستطلاع)<sup>1</sup>. هناك نوعان أساسيان للذاكرة؛ الذاكرة المعتادة والذاكرة المعرفية، نرى أنه من المفيد التمييز بينهما وتوضيح دور كل نوع بشكل مختصر. الذاكرة المعرفية هي ذاكرة تطبيق العلاقة والتمييز بين الأشياء وهي مرتبطة بالعواطف والانفعالات، وتتعلق نوعاً ما بالفكر. أما الذاكرة المعتادة (ذاكرة إتقان الفعل) فهي الحفظ بعد التكرار، كحفظ حركات بعد تكرارها على سبيل المثال، أو حفظ أحداث مستمرة منذ الطفولة،... الخ. الذاكرة المعتادة Usual memory: هذا النوع يحدث آلياً، كاستخدام الحركات والإشارات في أماكن عامة، كوضع أي شيء في مكانه المعروف خلال بعض الوقت، كالحركات المتبعة لتدارك الانقطاع أو التوقف تكون دائماً بشكل آلي. نفس الشيء كي نجد مفتاح التلفزيون على سبيل المثال. الذاكرة المعتادة تعتبر هامة جداً لأنها تساعد على التفكير والتبصر في كل ما يستدعي للتساؤل، وعمل ما يلزم أثناء مواجهة الأحداث اليومية. الذاكرة المعرفية Cognitive memory: هي عبارة عن تذكر اختياري "Voluntary memory acquisition"، وتختلف عن التذكر الاعتيادي "Remembering"؛ حيث أن هذا الأخير عبارة عن كل ما يعود أو يمكن أن يعود إلى الذهن من خبرات ماضية، وهي الصورة التي تحفظها الذاكرة ويمكن أن تزودنا بها دون اختيار.

**3.4. إعادة صياغة النص في اللغة الهدف:** في الترجمة، إعادة الصياغة هي إعادة إنتاج نص مكتوب أو منطوق من لغة مصدر في لغة هدف. تأتي هذه مرحلة مرتبطة ارتباطاً كلياً بالإلمام المعرفي (اللغوي والثقافي) بلغات العمل، وتعتمد كلياً على مرحلة الفهم؛ أي فهم النص الأصلي واستيعاب مراد الكاتب فيه. هذه المرحلة في عملية الترجمة ليست سهلة، بل توجد تقنيات

<sup>1</sup> Petit Larousse de la médecine, Larousse-Bordas, 1997.

مهنية لهذه المرحلة يجب أخذها في الاعتبار وتطبيقها من قبل المترجم بالشكل الصحيح؛ من أهمها تقنية اختيار الكلمات Word selection technique.

غالباً ما يواجه المترجم المبتدئ أثناء إعادة الصياغة مشكلة في اختيار الكلمات، ونقصد هنا الكلمات المناسبة لاستيعاب وفهم المتلقي وفقاً للسياق. من الطبيعي أن اختيار الكلمات في أي نص (منطوق أو مكتوب) يلعب دور أساسي في تكوين الأفكار الواضحة والمفهومة. ففي الترجمة التخصصية على سبيل المثال، يأتي الاختيار الصحيح لأي كلمة ضمن سياق تخصصي حسب الاستخدام المتداول في اللغة الهدف؛ في المجال العسكري نجد أن كلمة "Batiment" في الفرنسية تعني "سفينة حربية" أي "Navire de guerre"، وهنا يأتي دور اختيار المترجم للمقابل المتوافق حسب الاستخدام الصحيح الشائع ضمن قطاع القوات البحرية. هنا بالتأكيد يكون لدى المترجم خياران كلاهما صحيحان ويمكن استخدام أحدهما دون أي إشكال، لكن في حالة أن كان المتلقي غير مختص في المجال فالأفضل هو استخدام "Navire de guerre" بصفتها أقرب للفهم من كلمة "Batiment"، أو إضافة كلمة "Gueurre" لتصبح "Batiment de guerre".

أما في الترجمة الشفهية فهناك طريقتان تستخدم بشكل دائم في عملية الترجمة لاختيار الكلمات، الأولى تعتمد على معرفة المعنى الذي يظهر للمترجم في أول وهلة، الثانية تعتمد على معرفة المعنى من خلال التطابق الصوتي. كلمة "Forgat" في الفرنسية بمجرد مرورها ضمن سياق الخطاب فإن المترجم إلى العربية ينقلها بشكل شبه تلقائي من خلال ما يسمى بالتميرير الصوتي السريع؛ أي كلمة "فرقاطة" التي تحمل ذات المعنى في اللغة العربية. دور المترجم في هذا الجانب أن يكون دائم الاطلاع على كل ما هو جديد حول الموضوع بشكل عام ولديه إلمام مسبق بمراد الكاتب أو المتحدث ومعرفة تامة بالموضوع المراد ترجمته، وأن يكون قادراً على إيجاد الطرق المناسبة لإيصال المعنى للمتلقى بشكل واضح وكما ينبغي. ولكن بالمقابل يوجد كلمات ذات دلالات ثابتة لا تتغير ولا يؤثر في معانيها تغيير السياق كالأرقام، أسماء العلم، المصطلحات التقنية والاختصارات، بالتالي يلزم إيجاد مطابقتها كما هي في اللغة الهدف. تعد تقنية اختيار الكلمات في الترجمة من بين التحديات التي يواجهها المترجم أثناء إعادة صياغة النص الأصلي في اللغة الهدف. وهذه التقنية في عملية الترجمة من الطبيعي أن تلعب دور هام في إيجاد الأفكار والرؤى. فالشكل الوحيد للكلمات (المدلول) يجب أن يكون ذا طابع غير قابل للتغير، وذلك ما يساعد على تمرير رسالة من قيمة مطلقة؛ وبالتالي يتم قبولها دون الرجوع لسبب وجودها. وهنا علينا التأكيد أن "اللاتنوعية الدلالية" Semantic Non-Variability و"اللاحيادية في الترجمة" Translation Non-Neutrality تظهران دائماً عند اختيار الكلمات. هذا يعني أن الترجمة ليس فيها حياد إطلاقاً، فالكلمات في تنظيمها لا يمكن أن تفصل عن المحتوى الذي ينقلها. ولكن السؤال يطرح حول ما يسمى بالانتقائية الدلالية Semantic Selectivity في اختيار الكلمات؛ فهناك في بعض الكتابات المنشورة نجد أفكار وأحكام موجّهة لشريحة خاصة من القراء من خلال ما يسمى بالانتقائية الضمنية لاختيار كلمة من بين كلمات أخرى واستخدامها دون غيرها.

وهنا يطرح السؤال أيضاً إن كان الأمر يتعلق بمفهوم لغوي صحيح أم مفهوم إيديولوجي، وفي الحالة الأولى إن كان عبارة عن حالة وصفية لواقع أم لا، أم أنه في الحالة الأخرى يعتبر موضوعي وبالتالي تشويه للواقع. لإزالة تلك الازدواجية نجد أنه من الضروري التمييز بين مفهومي "الموضوعية" و"الذاتية". ففي الموضوعية تأتي فكرة الوصفة المحددة للتنفيذ، بالإضافة لفكرة

التوحيد قدر المستطاع لأحد أنواع اللغة أو الخطاب، كذلك تأتي فكرة تنظيم اللغة لأهداف سياسية على سبيل المثال. ولتوضيح الفرق بين الذاتية والموضوعية في الترجمة يفضل أن يؤخذ في الحسبان اختلاف معاني الكلمات والدلالات الضمنية وتأويلاتها المختلفة أثناء نقلها من لغة إلى أخرى. فعندما يبحث المترجم الفوري أثناء إعادة الصياغة عن مكافئات الكلمات في النص الأصلي فإن أمامه ثلاث طرق يمكن تلخيصها على النحو التالي: الأولى، النقل أو التميرير الصوتي "Phonetic glissement". الثانية، ترجمة المعنى اللغوي الأول للكلمة، أي المعنى الذي يخطر في الذاكرة من أول وهلة؛ وهذه الطريقة في بعض الحالات لا يلعب الذكاء فيها أي دور. الثالثة، الاستدكار والنقل المحدد للمصطلح من خلال إيجاد مطابق آخر في اللغة الهدف ويسمى النقل بالتطابق. في حين أنه في النهج الوصفي نجد أن التضمين الإيديولوجي لقيمة قرار على سبيل المثال هي التي تحكم الاختيار الضمني في الاستخدام الذي يأتي ضمن جملة أمور أخرى وهذا ما ذكرناه تحت مسمى "الانتقائية الضمنية"، وهنا تكمن الإشكالية. التميرير الصوتي من لغة إلى أخرى يتم من خلال تعديل بسيط في الصوت ويكون مبرر في حالة السيطرة عليه أو ضبطه بالمعنى، لأنه يوجد كلمات استعارة في اللغة العربية لها نفس التشكيل الصوتي في لغات أخرى (اللغات التي من أصل لاتيني). ويحدث أحياناً بمجرد تعديل بسيط في النطق أنها يمكن أن تنفذ لذاكرة المترجم مباشرة، ولكنها لا تحمل نفس المعنى. فعلى سبيل المثال كلمة "diplomatie" في الفرنسية، "diplomacy" في الانجليزية، "دبلوماسية" في العربية،... الخ. هنا الأمر ليس إلا استعارة من اللغة الفرنسية للغة العربية، لأن هذه الكلمة كما نرى في المثال تنطق في العربية كما تنطق في الفرنسية ولكن المعنى اللغوي يختلف تماماً عن المعنى اللغوي في اللغة العربية. حيث "diplomatie" دبلوماسي على مستوى النطق تعني في اللغة الفرنسية علم الدبلوماسية؛ أي ممارسة العلاقات الدولية، المجال الدبلوماسي، السلك الدبلوماسي، وتعني أيضاً مهارة التعامل في العلاقات مع الآخرين. ويقابلها في اللغة العربية "الدبلوماسية" وليس "الدبلوماسي". كلمة دبلوماسي على مستوى النطق تعني في اللغة الانجليزية مهارة التعامل مع الآخرين. وتعني أيضاً فن أو مهنة صنع الاتفاقيات والمعاهدات بين الدول، وينطبق ذلك على أي شخص يمثل بلده ويرعى شؤونها ومصالحها في بلد آخر. بينما "دبلوماسي" على مستوى النطق تعني في اللغة العربية الشخص الذي يتمتع بصفات الدبلوماسية؛ أي "diplomate" في اللغة الفرنسية. هذه التقنية في مرحلة اختيار الكلمات تتطلب إلمام لغوي تام كأول الأسس التي تقوم عليها عملية الترجمة.

#### خاتمة:

عملية الترجمة لها منطقتها وأسسها ومبادئها التي تقوم عليها، ولا يمكن وصفها بعملية خيانية إلا في حالة غياب تلك الأسس والمبادئ. هذا بلا شك يؤكد ما نقوله في علم الترجمة أن المترجم في الأساس لابد أن يكون لديه معرفة لغوية تامة بلغات العمل حتى يستطيع أن يحرك معارفه الثقافية ومن ثم التخصصية أثناء عملية الترجمة. فقدرته المترجم المعرفية على مستوى اللغة والثقافة، وكذلك على مستوى المجال والموضوع المتناول على وجه الخصوص هي التي تسهل عليه فهم النص الأصلي، في حين أن فهم النص الأصلي في لغة يسهل إعادة صياغته في لغة أخرى ومن ثم ترجمته. هذا يعني أن عملية التحليل والتركيب والبحث التوثيقي للنص عند المترجم غالباً ما تسهل بمجرد تحريك الجانب المعرفي وبالتالي يمكن إعادة إنتاج النص الأصلي وإتمام ترجمته بنجاح. وعلى العكس، فإنه غالباً ما يصعب فهم النص بل يستحيل إعادة صياغته أحياناً في ظل غياب الجانب المعرفي.

إذن، النظرية التأويلية بمفهومها الصحيح هي التي تساعد المترجم وتسهل عمله بل تأخذه إلى الإبداع، فمتى ما ابتعد عن فكرة النقل اللغوي الصرف فإنه بذلك يحزر نفسه من الحرفية ويهيئها للإبداع، وكلما كان لديه مقومات الترجمة الأساسية كلما كان قادراً على إتمام عملية الترجمة بنجاح وكلما كان مبدعاً. قد يخالفنا بعض اللغويين هذا الرأي، لذلك نؤكد هنا أنها ليست إلا نظرة متخصص في علم الترجمة تأتي ضمن إطار توجه "النظرية التأويلية للترجمة"، أي نظرية المعنى التي تبنتها أعرق مدارس الترجمة في العالم؛ "مدرسة جنيف 1941" المعروفة حالياً باسم "كلية الترجمة والترجمة الفورية (FTI)"، "مدرسة باريس 1957" المعروفة باسم "المدرسة العليا للمترجمين والمترجمين الفوريين (ESIT)"، "مدرسة أوتاوا 1971" المعروفة باسم "مدرسة الترجمة والترجمة الفورية (STI)". وهنا تأتي أهمية هذه الدراسة لجميع طلاب الترجمة للتمييز بين نظريات الترجمة وتطبيقاتها العملية المختلفة والتركيز على النظرية الأكثر فائدة في عملية الترجمة، بالإضافة لمعرفة أهم مفاهيم علم الترجمة وأسس ومبادئ عملية الترجمة. ليس هذا فقط، بل تأتي الأهمية أيضاً للمترجمين أنفسهم لمعرفة أسباب الصعوبات التي تواجههم في أعمال الترجمة بشكل عام أو بعضها، وكيفية الاستفادة من الجانب التطبيقي للنظرية التأويلية في تسهيل مهمة الترجمة.

#### قائمة المراجع:

1. إيناس أبو يوسف وهبه مسعد، "مبادئ الترجمة وأساسياتها"، كلية الإعلام، مركز التعليم المفتوح، جامعة القاهرة، الطبعة الأولى 2005.
2. فرج محمد صوان، "الترجمة: الأسس النظرية والممارسة"، دار الروافد الثقافية – ناشرون، ابن النديم للنشر والتوزيع 2019.
3. مداس أحمد، "الترجمة: الطبيعة والأداء والتقويم"، مجلة كلية الآداب واللغات، العدد الثامن، جامعة محمد خيضر، بسكرة 2011.
4. Ballard, Michel et El Kaladi, Ahmed, "Traductologie, linguistique et traduction", Centre d'Etudes et de Recherches en Traductologie de l'Artois, Presses Universitaires d'Artois, Actes du colloque, Les 23 et 24 Mars, Arras 2003.
5. Blanc, Nathalie et Brouillet, Denis, "Mémoire et compréhension: Lire pour comprendre", in Press Editions 2003.
6. Durieux, Christine, "L'opération traduisante entre raison et émotion", Revue Meta, Volume 52, Numéro 1, 48 – 55, Les Presses de l'Université de Montréal, 2007.

<sup>1</sup> جامعة أوتاوا (أول جامعة كندية قدمت دروس في الترجمة المهنية عام 1936، ومن ثم أنشئت مدرسة الترجمة والترجمة الفورية عام 1971).

7. Gallagher, John D., "L'Activité traduisante comme domaine de créativité", in La traductologie dans tous ses états, Corinne Wecksteen et Ahmed El Kaladi, Mélange en l'honneur de Michel Ballard, p. 93-115, Artois Presses Université, OpenEdition Books, Arras 2020.



## الحق في إنجاب طفل معاق بين المنظور الديني والمنظور الحقوقي والقهر والوصم الاجتماعي

Women's right to have a "disabled" child between the religious perspective, the human rights perspective, oppression, and social stigma.

ط.د. سعيدة الزين/جامعة القاضي عياض، المغرب

Saida Ezzine: PhD researcher / Cadi Ayyad University, Morocco.

### ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى البحث في أشكال الوصم الذي يعيشه الشخص في وضعية إعاقة وأيضا الأجنة التي تشكل مشروع شخص في وضعية إعاقة في المستقبل، تدرس هذه الورقة البنيات الثقافية المسؤولة على بناء ممارسات يومية تجاه الأشخاص في وضعية إعاقة استنادا لخلفيات دينية، حقوقية وشعبية.

الكلمات المفتاحية: الإعاقة، الأجنة المشوهة، الإجهاض، الدين، الوصم، الحق في الحياة.

### Abstract:

This study aims to investigate the forms of stigma that a person with a disability experiences and also the embryos that constitute a project for a person with a disability in the future. This paper studies the cultural structures responsible for building daily practices towards people with a disability based on religious, legal, and popular backgrounds.

**Keywords:** disability, deformed fetuses, abortion, religion, stigma, right to life.

## مقدمة:

تتعدد أنواع الإقصاء والتمهيش الذي تعيشه فئة الأشخاص في وضعية إعاقة، الأمر الذي جعل الأشخاص في وضعية إعاقة داخل المجتمعات، يعيشون أنواع مختلفة من التهميش والإقصاء؛ لتختلف درجة هذا الإقصاء حسب المسار الذي قطعه المجتمع نفسه في التنمية والدفاع عن حقوق الإنسان. فالمجتمعات الغربية مثلاً وصلت اليوم إلى موجات جديدة في الدفاع عن حقوق الأشخاص في وضعية إعاقة، يمكن أن نسميها حقوقاً من أجل رفاهية الحياة؛ في حين أن المجتمعات التقليدية كنموذج المغرب لازالت تناضل من أجل الحقوق الأساسية الحافظة للكرامة فحسب. تضع الإعاقة ثقلاً مادياً ورمزياً على من يعيشها وعلى المحيطين من داخل الوجود الاجتماعي؛ هذا الثقل يمكن أن يكون مصرحاً به من خلال الصعوبات المرتبطة بالولوجيات، التأهيل الطبي والشبه طبي أو المواكبة النفسية. ويمكن أن يكون خفياً متجسداً في نظرات الشفقة والتجنب إثر وصم اجتماعي يبعد الفرد في وضعية إعاقة من خشبة الحياة الاجتماعية المعروضة ليتوارى إلى الكواليس ويصبح حسب تعبير مولي بلوم "MOLLY BLOOM" غير مرئي. إن لعبة الظهور والتخفي هذه ترتبط حسب ما شرحه Erving Goffman إيفرينغ كوفمان "بهوية اجتماعية" تتأسس على توقعات وانتظارات وتصنيفات اجتماعية للفرد المعياري من الناحية الجسدية والنفسية والانتماء. وبما أن الإعاقة نوع من "العيوب التي تضرب صورة الفرد المكتمل الانسانية؛ لأن الوصمة ترتبط بالتشوهات والعيوب الجسدية أو عيوب الشخصية الفردية أو عيوب ترتبط بالانتماء القبلي الديني أو العرقي؛ فإن كوفمان يشير إلى أن "الفرد الذي يعاني من وصمة العار ليس إنساناً تماماً أو مكتمل الانسانية"<sup>1</sup>؛ حسب الطرح المجتمعي أو صورة الفرد المعياري في المجتمع، الأمر الذي يضعه أمام أشكال من التمييز والاستبعاد وكذا الإقصاء. تشكل الإعاقة إحدى الظواهر الصحية المتحكمة لا في الوجود المادي أو البيولوجي والوظيفي فحسب للفرد؛ بل حتى الوجود الاجتماعي الرمزي لذلك أصبحت دراسة الجسد مؤثرة على النظريات النقدية ودراسات "النوع الاجتماعي" والحركات النسوية.

نسعى في هذه الورقة البحثية إلى رصد الوجود الافتراضي المسبق للفرد في وضعية إعاقة في مرحلته الجنينية أي باعتباره جنين يشكل مشروع فرد في وضعية إعاقة بعد الكشف الطبي عن هذه الامكانية. ولا يمكننا دراسة وضعية الجنين أي الفرد المستقبلي "المعاق" دون الحديث عن وضعية الأم الحامل بهذا الجنين الذي يشكل وجوداً افتراضياً سيعيش بالضرورة أشكال الوصم والرفض، لكن الفرق أن الأم هي التي ستتحمل هذا الثقل في شهور الحمل وخلال سنوات الطفولة الأولى. إن الوجود الفعلي للشخص في وضعية إعاقة تحيط به تصورات اجتماعية وأفكار تحدد طبيعة الحضور انطلاقاً من التصور الديني، البناء الخطابي، البناء الرمزي، الثقافة الشعبية انطلاقاً من أمثال شعبية والرواية مثلاً، التصور الحقوقي والقانوني، والبنى المؤسساتية التي تحدد بالضرورة طبيعة هذا الوجود سواء كان إقصاءً أو إدماجاً؛ ولن تختلف هذه العوامل في إمكانية قبول أو رفض حمل هو مشروع طفل في وضعية إعاقة. إذن كيف تتموقع الإعاقة من داخل الديانات؟ كيف هو حضور المرأة في وضعية إعاقة داخل المتن الديني الإسلامي؟ كيف يمكن دراسة النساء والإجهاض في السياق العالمي؟ لمن سلطة تقرير من

<sup>1</sup> Goffman Erving. Selections from Stigma. Lennard J. Davis. The Disability Studies Reader. Routledge Taylor & Francis Group. 2016. Second Edition...P133

سيسكن العالم بعبارة أخرى لمن أحقية إجهاض أو الإبقاء على طفل في وضعية إعاقة؟ كيف تقرر النساء عقب نتائج اختبارات الحمل، وكيف تؤثر المواقف تجاه الإعاقة على اختياراتهن؟ ماهي الأصوات المناهضة لإجهاض الأجنة "المعاقة"؟ ما هو الموقف الإسلام من إجهاض الأجنة المعاقة؟

### 1 الإعاقة والأديان: التصور الإغريقي، اليهودي المسيحي والإسلامي للإعاقة:

يشكل الدين إحدى المؤسسات الاجتماعية البانية للمعنى داخل المجتمعات ولا يمكن تصور ظاهرة اجتماعية كالإعاقة من دون سياق ديني يأسس للتمثيلات والممارسات اليومية تجاه شخص في هذه الوضعية؛ فالدين يلعب دوراً حاسماً في طرق وكيفيات التعامل مع الإعاقة، وهذا التأثير ليس وليد اللحظة بل متجذر في التاريخ قدم الدين والإعاقة نفسهما. كما يمكن تجنب وصف دوركاييم المزعوم في كتابه "الأشكال الأولية للحياة الدينية" "Elementary forms of religious life"، "الدين بأنه ظاهرة اجتماعية تطورت انطلاقاً من الأمن العاطفي الذي يتحقق من خلال الحياة الاجتماعية، يعتبر دوركاييم بعض الممارسات الاجتماعية جزء من العالم الروحي والديني للمجتمعات؛ تترجم إلى عادات يومية في حياة الفرد"<sup>1</sup> و التعامل مع الإعاقة يدخل ضمن العادات اليومية التي يمكن تقسيمها إلى شكلين أولهما؛ شكل متسامح فيه مع الإعاقة – إذا أمكننا استعمال مفهوم التسامح في هذا السياق-؛ عند الإصابة بالإعاقة إثر المشاركة في المعارك والحروب لتشكل الإعاقة مصدر فخر كدليل على الشجاعة و التضحية؛ أي في حالة الإصابة بالإعاقة كاكنتساب. أما الشكل الثاني فهو التعامل الأكثر تميزاً وإقصاء في حالة الإعاقة الخلقية والذي سنأتي في تفصيله داخل السطور القادمة.

إن أي فهم لواقع الإعاقة وإجهاض الأجنة اليوم لابد له بالضرورة من حفريات تاريخية في جذور الإعاقة داخل الدين؛ ففي العالم اليوناني مثلاً المهووس بجمال وقوة جسم الإنسان، تم تفسير ولادة طفل معاق على أنه عقاب على خطيئة والديه، عاش الآباء ضغطاً من أجل دفعهم لـ "فضح طفلهم المعاق" أي (تركه دون رعاية، بعيداً عن المجتمع) لمواجهة مصيره، كان المجتمع العسكري الروماني يميل إلى رؤية أي "ظاهرة طبيعية غير مألوفة كندير شؤم لكارثة وشيكة"<sup>2</sup>.

وعلى عكس التصور اليوناني كان التصور اليهودي أكثر إنسانية - إن أمكن قول ذلك - بحيث يصور الميشنا TheMishna<sup>3</sup> الإعاقة على أنها "جزء من النظام العظيم لخلق الله" لذلك لا يُنسب أي خطأ إلى الأشخاص ذوي الإعاقة أنفسهم والإعاقة ليست إجراء عقابي من الله، بدلاً من ذلك يقترح في ميشنا أن "الخطيئة تؤدي إلى الإعاقة حسب القوة التي ارتكبت بها الخطيئة

<sup>1</sup> Kaur Sandeep . Navneet Arora. Religious Perceptions Towards Disability: A Changing Perspective. IJRAR February 2019, Volume 6, Issue 1.p252

<sup>2</sup> Vardit Rispler-Chaim. DISABILITY IN ISLAMIC LAW. Springer. 2007.VOLUME 32.p5

<sup>3</sup> الميشنا The Mishna الجزء الأول من التلمود، وهو تجميع للشريعة اليهودية، تم وضعه حوالي 200 م.

"والمعاملة بالمثل هي: "مقياس للمقياس"، حيث أن الخطيئة هي التي تسبب العجز إذن كل ما نحتاجه هو أن نعرف ما هي أصول الخطيئة لنعرف على من يقع اللوم (الإنسان، أم الشيطان، أو...؟)<sup>1</sup>

أما في الكتابات المسيحية تم تفسير الإعاقات على أنها من مظاهر الصراع بين الخير و الشر. فسر مسيحيون آخرون الإعاقات كدليل على أن المعاقين هم مذنبين أو ذرية مذنبين. كان مسؤولو الكنيسة في كثير من الأحيان يشاركون في تشخيص الأمراض العقلية والإعاقات الأخرى. وقد طالبوا في بعض الأحيان بمعاقبة المعاقين وعزلهم عن المجتمع وعن أنشطة الكنيسة. ولم يكن ممكنا دفن المعاقين في أراضى الكنيسة ولم يحق لهم الزواج، ولم يمكنهم أن يصبحوا كهنة ورهبانًا. إذا ولد المرء بدون إعاقات وطورها فيما بعد، فسيتم اعتبار ذلك على أنه عذاب من الله....<sup>2</sup> سيشهد هذا الوضع تغيرا في العالم المسيحي في نهاية القرن الثامن عشر عقب انتشار الأفكار الانسية من حرية ومساواة من قبل الثورة الفرنسية؛ لينظر للأشخاص في وضعية إعاقة على أنهم "ضحايا أبرياء لسوء الحظ" innocent victims of misfortune " ويصبح دور الكنيسة حماية هذه الفئة وتقديم الدعم لها. بعد رصدنا لواقع الإعاقة في الفترة اليونانية ومن داخل التعاليم اليهودية والممارسات المسيحية سنحاول فهم واقع الإعاقة من داخل التصور الإسلامي.

تحضر الإعاقة في العالم الإسلامي كتسميات لحاملي إعاقات معينة مثل الأعشى، الأصم (الصم)، الأكم أو الأخرس، الأعرج، المجنون والخنثى. هناك أيضًا أشكال أنثوية لنفس الصفات مثل "عمياء" عرجاء ومجنونة للإشارة إلى أن الشخص المعاق في صيغة المؤنث. يشير Vardit Rispler- Chaim أنه لم يجد حسب تعبيره مصطلحا يحيل على الأشخاص في وضعية إعاقة غير تلك التسميات الفردية لكل إعاقة مثلا "الأعرج". إضافة إلى أنه يؤكد أن الأشخاص في وضعية إعاقة يتم تصنيفهم داخل مفهوم "المريض" لتكون بذلك الإعاقة نوع من الأمراض التي تمس الفرد ويسري على "المعاق" ما يسري في القاعدة الدينية على المريض. فالتصور الإسلامي التقليدي للمرض يصوره كحالة غير طبيعية تؤثر على أعضاء معينة في الجسم.<sup>3</sup> هذه الحالة الغير طبيعية ليست بسبب النجوم والأرواح الشريرة أو الشياطين، كما اعتاد العرب اعتبارها قبل الإسلام.<sup>4</sup> ولا عن غضب الله أو أنه ثوبة، بل هي اختبار يمكن أن يكفر المرء به عن خطاياها.

تختلف طرق التعامل مع الإعاقة حسب منطلقات كل دين وحسب الثقافة السائدة وطرق تصور الكمال الجسدي والذهني، لاحظنا أن عقدة الذنب التي لاحقت الطفل أو الشخص في وضعية إعاقة كانت أقل ثقلا في طرق تعامل الدين اليهودي مع هذه الفئة الذي لا يحمله مسؤولية الإعاقة؛ نفس الطرح كان داخل التصور الإسلامي الذي اعتبر الإعاقة نوع من المرض يجب السعي للعلاج منه وعلى أفراد جماعة المسلمين تقديم الدعم والمساعدة وإعفاء هذه الفئة من القيام بالواجبات الدينية الصعبة كالجهاد احتراماً لوضعيتهم كأصحاب عاهات.

<sup>1</sup>Vardit Rispler-Chaim. DISABILITY IN ISLAMIC LAW.op.cit..p 6

<sup>2</sup> Ibid.

<sup>3</sup>Vardit Rispler-Chaim. DISABILITY IN ISLAMIC LAW.op.cit. 8

<sup>4</sup> Ibid.

## 2 حضور المرأة في وضعية إعاقة داخل المتن الديني:

يغيب الحديث عن المرأة في وضعية إعاقة داخل المتن الديني الإسلامي كنوع من أنواع التخصيص ويتم الاكتفاء بتناول حضورها بشكل عام باعتبارها تنتمي لفئة المرضى؛ بحيث ليس هنالك تمييز صريح بين الإعاقة والمرض؛ بل كل إعاقة مهما كانت درجتها وشدتها تدخل في باب المرض والعاهات. ولأن القاعدة الشرعية تحدد طبيعة الأدوار الاجتماعية التي يلعبها الأفراد اخترنا تناول أهم دور للمرأة داخل النص الديني: وهو دور الزوجة أي الأم التي من الممكن أن تنجب طفلا في وضعية إعاقة.

يشير طاهر بن عاشور إلى أن للزواج مقاصد عدة من بينها "الاستمتاع والتناسل والأبوة والأمومة وفروع القرابة والمصاهرة، ونمو العلاقات الطيبة بين الأصول والفروع والحواشي؛ لتحقيق مضمون الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: 13].<sup>1</sup> ولقيام علاقة زوجية مقبولة شرعا لا بد من توفر عدة شروط والإا وقع فسخ عقد الزواج أو طلاق بعد البناء. ويمكن لعقد الزواج أن يفسخ في حالة إعاقة الزوجة عند توفر الشروط الآتية:

أ. إذا لم يكن الزوج على علم بإعاقتها قبل التعاقد على الزواج منها.

ب. إذا لم يبدي الزوج قبوله لهذا الضعف بعد الزواج، بالكلام أو بالجماع معها.

ج. كلاهما لا يتمتعان بالقرب الجسدي من خلال اللمس، التقبيل، إلخ.

إذا أصيبت الزوجة بالجنون بعد الدخول أو حتى قبل ذلك، المالكين لا يسمحون للزوج فسخ (فسخ الزواج) ويمكنه دائما ممارسة حقه في الطلاق.<sup>2</sup>

استنادا لهذه القاعدة الدينية قال ابن أبي زيد: "وَتَرَدُّ الْمَرْأَةُ مِنَ الْجُنُونِ وَالْجُدَامِ وَالْبَرَصِ وَدَاءِ الْفَرْجِ؛ فَإِنْ دَخَلَ بِهَا وَلَمْ يَعْلَمْ وَدَّى صَدَاقَهَا وَرَجَعَ بِهٍ عَلَىٰ أَبِيهَا"<sup>3</sup>، وهذا يعني إذا اكتشف مرض من طرف الزوج في الزوجة جاز له ردها لبيت أبيها في حالة عدم إمكانية الشفاء بعد مهلة سنة. وبذلك يصبح المرض الذي تدخل ضمن أحكامه الإعاقة عبارة عن عيب يجوز معه فسخ عقد الزواج. "وقد جاء في المادة 107 من مدونة الأسرة المغربية ما يأتي: تعتبر عيوباً مؤثرة على استقرار الحياة الزوجية وتخول طلب إنهاء: العيوب المانعة من المعاشرة الزوجية؛ الأمراض الخطيرة على حياة الزوج الآخر أو على صحته، التي لا يرجى الشفاء منها

<sup>1</sup> محمد نبيل غنايم. مقاصد الشريعة وأشكال الزواج المعاصرة.

<sup>2</sup> Vardit Rispler-Chaim. DISABILITY IN ISLAMIC LAW. op.cit. p.54

<sup>3</sup> وزارة الشؤون الإسلامية. الطلاق لعيب وتمليكه والتخيير فيه. تمت الزيارة 17-03-2023.

الكتب-المدرسية/المرحلة-الأولى/الفقه/اعدادي/12146-الطلاق-بالعيب-وتمليكه-والتخيير-فيه-الفقه-من-متن-الرسالة-لابن-أبي-زيد-القيرواني-التعليم-العتيق.htm

داخل سنة<sup>1</sup> ويحق للزوجة كما للزوج طلب الطلاق لعيب؛ في حالة اتمام الزواج وعدم إشعار الزوجة للزوج بوجود إعاقة يعتبر ذلك شرعا تدليسا ويمكن معه فسخ عقد الزواج في حالة عدم الدخول ويمكن التطليق بعد البناء<sup>2</sup>.

### 3-1 النساء والإجهاض في السياق العالمي:

تربط شبكة واسعة من العلاقات الاجتماعية الفرد بالمجتمع في علاقات مليئة بالمعنى الممنوح لكل ممارسة أو مظهر ثقافي، ولعل الإعاقة من بين الظواهر السابحة في المعنى؛ يتحكم في هذا الأخير الجانب "المعياري" أو المعيارية "Normality"؛ في الطريقة التي يتصرف بها الناس تجاه بعضهم انطلاقا من تكوين صور ذهنية عن الطبيعي أي الجانب المسلم به مسبقا على أنه عادي، والمعياري باعتباره مجموع ما توافق بشأنه الوعي الاجتماعي وقد يختلف من سياق مجالي وتاريخي لآخر. ويمكن القول أن المعياري هو نتيجة نظام معتقد متجذر بعمق ومتشابك في شخصية المرء، انطلاقا من التنشئة والتفاعل مع الأسرة والأقران والقرارات الشخصية... المفهوم يوحي إلى مطابقة المعايير الاجتماعية، وبالتالي فإن يكون الفرد فردا طبيعيا هذا يمنحه ضمانا وحماية من رفض المجتمع له. تشكل المعيارية استخلاص للمعايير انطلاقا من السلوكيات الأكثر شيوعا داخل الثقافة. والمفهوم الأقرب والأكثر صلة هنا هو "المعيارية الثقافية"؛ باعتبارها مجموعة من المعايير الثقافية المتضمنة في الممارسات الثقافية، مع الجهات الفاعلة في الحياة الاجتماعية والمشاركين في الثقافة ليسوا دائما غير واعون بها بشكل مباشر. وفقاً لذلك، المعيارية هي تلك الأنظمة الداخلية للهيكل التي تؤدي في النهاية إلى البناء الاجتماعي للمعنى في ثقافة معينة.

" إن هذا الجسد الذي يخضع للمعيارية والقوالب الثقافية هو بالنسبة للنسوية ما بعد البنيوية روزي بريدوتي Rosi Braidotti ليس بيولوجيا ولا فئة اجتماعية بل تصوره على أنه واجهة، عتبة وحقل حيثما تتقاطع فيه الموارد المادية والرمزية مشكلا تقطعا للقوى، إذ توجد رموز متعددة للجنس والطبقة والعمر والعرق وهكذا دواليك. يُفهم الجسم المعياري على أنه مصمم ويتجسد من خلال الظروف الثقافية والسياسية والاجتماعية بدءا بالجراحة وصولا إلى المساعدة الذاتية. الأجساد غير المعيارية – هي أجساد تشكل موضوع خوف وفضول - وتعتبر فرصة للتفكير من خلالها في القيم والأخلاق والسياسة التي تتجمع حول هذه الأجساد. وهذا المعنى فإن أي وظيفة جسدية حميمة هي أيضا وظيفة للجسم داخل معايير تجسيد معين.<sup>3</sup> وحتى الدور الطبيعي المتجسد في فعل الحمل والولادة هو في الحقيقة فعل خارج عن حدود الفردية بل هو فعل تتحكم في المعايير الثقافية وهذا المعنى فالرضيع الذي سوف يأتي لهذا العالم عليه أن يخضع هو الآخر للمعايير الجسد المقبول والغير مرفوض وإلا سيعاني كمشخص في وضعية إعاقة ما سماه Bill Hughes "الخوف من خرق دستورنا البشري" المتجسد في الشعور بالاشمئزاز تجاه هذه الفئة "كحكم أخلاقي يستخدم لتقييم الآخرين ووضعهم في مكانة أدنى، في نفس الوقت إعطاء حجة على

<sup>1</sup> نفسه

<sup>2</sup> Vardit Rispler-Chaim. *DISABILITY IN ISLAMIC LAW*.op.cit.p51

<sup>3</sup> Garland-Thomson Rosemarie . *Building a World with Disability in It* Rosemarie Garland-Thomson. Culture – Theory – Disability Encounters between Disability Studies and Cultural Studies. ISABILITY STUDIES • BODY – POWER – DIFFERENCE.2017.VOLUME 10. p 86-87

تفوق الأنا على الجميع وكدليل على نقاوتنا، إن الإشمئزاز أمر قاس... إنه يحكم على القبح والتشوه كمخالفات أخلاقية دونما تمييز بين الأخلاق ومعايير الجمال، والفضل في هذا التمييز يؤدي لا محالة للاشمئزاز<sup>1</sup> لا يقف الأمر عند هذا الحد بالنسبة Hughes بل يتجاوز لحد الشعور بالشفقة لأنه يعتبر "ذوي الإعاقة" مثارة للأسف" في خضم المعاناة التي يعيشونها بسبب إعاقاتهم لكنه يشير في نفس السياق إلى أن روسو اعتبر الشفقة هذه شكلا من أشكال اللامساواة الاجتماعية.

بناء على هذه المعطيات يشكل إنجاب طفل مع إعاقة مغامرة بالنسبة للأم بحيث يمكنه قلب حياتها رأسا على عقب ويخرج بها من منطقة الراحة إلى معاناة مع نوع الإعاقة ودرجتها وطبيعة الرعاية التي يمكن منحها لهذا الطفل من جهة، ومن جهة ثانية المعاناة مع أنواع الاستبعاد، القهر، العنف والألم النفسي الذي قد يشعر به الطفل والأم وكذلك الأسرة ككل. لأن هذا الجسد "المعاق" حسب Donna Reeve في "التصور الفينومولوجي هو جسد "خاطئ" يعاني اضطهادا خارجيا الأمر الذي يخلق لديه "اضطهاد داخلي"<sup>2</sup> وتؤكد Reeve أن هذا القهر يخلف ما أسمته Psycho-emotional disablism أو إعاقة نفسية وعاطفية. إذن هل يحق للمرأة أن تنهي حملا يشكل مشروع طفل في وضعية إعاقة مستقبلا؟ هل من حقها إنهاء حمل بدعوى تجنب الألم هي وطفلها؟ كيف يحدد الشرع موقفه من إجهاض الأجنة المعاقة؟

### 3-2- لمن سلطة تقرير من سيسكن العالم؟

عاشت أمهات الأطفال في وضعية إعاقة معاناة ارتبطت بشكل كبير حسب David B. Morris ب"أسطورة الألمين myth of two pains" ومعناه أن تجربة الألم التي يعيشها الشخص في وضعية إعاقة ومن يتكلف برعايته تتجسد في ألم مضاعف بحيث يمكنك "الشعور بألم جسدي إذا انكسرت ذراعك، لكن تشعر بألم ذهني أضعف إذا انكسر قلبك. بين هذين الألمين المختلفين يمكن تخيل خليج واسع وعميق<sup>3</sup> من المشاعر السلبية. إن هذا الألم الناجم عن ممارسات نابذة ومستبعدة للأشخاص في وضعية إعاقة لا يرتبط فقط بالجانب الثقافي المتجذر في تاريخ الشعوب وعبر الديانات فحتى التاريخ الحديث والمعاصر شهد ممارسات، أقل ما يقال، أنها كانت بشعة تجاه هؤلاء الأفراد. بل إن تاريخ الغربي ترجم أشكال الوصم والاستبعاد انطلاقا من: نظرات استغراب، فضول، خوف وتجنب إلى رغبة في القضاء على هذه الفئة وتنقية الدول منها بدءا بعملية تحسين النسل Eugenics؛ الكلمة التي تعني في أصلها اليوناني مولدا جيدا.

<sup>1</sup>Bill Hughes. Fear, pity and disgust: emotions and the non-disabled Imaginary. ROUTLEDGE HANDBOOK OF DISABILITY STUDIES.2012. p 72

<sup>2</sup>Donna Reeve. Psycho-emotional disablism: the missing link? ROUTLEDGE HANDBOOK OF DISABILITY STUDIES. 2012.p78.

<sup>3</sup> Andreas Sturm. The Experience of Pain, Disability Identity and the Disability Rights Movement. Culture – Theory – Disability Encounters between Disability Studies and Cultural Studies. ISABILITY STUDIES • BODY – POWER – DIFFERENCE • 2017. VOLUME 10.20 124-125.

" ظهرت حركة تحسين النسل الأمريكية التي مع مبادئ غالتون "Francis Galton" <sup>1</sup> وحققت أكبر تأثير لها بين 1905-1935؛ وقد تأسست على القلق الأساسي لعلماء تحسين النسل في بيان صادر عن لويس تيرمان 1924 Lewis Terman وهو أحد كبار المهندسين المؤكد على أن: ضعف " خصوبة مخزون الأسرة التي يأتي منها أطفالنا المتضائل... و إذا استمر معدل المواليد المختلف أن ذاك (الأطفال مع إعاقة)، فإن 100.000 من خريجي جامعة هارفارد بعد 200 سنة سيكون لديهم 56 حفيد فقط، بينما في نفس الفترة، سيستطيع 1000 شخص من الإيطاليين أن يحصلوا على 100.000 حفيد؛ وللتعامل مع هذا الاحتمال الرهيب كان لبرامج تحسين النسل شقان: "تحسين النسل الإيجابي positive eugenics"؛ عبر تشجيع الأشخاص "على تحسين النسل" من أجل إنجاب الكثير من الأطفال - و "تحسين النسل السلبي" - يشير إلى منع الأشخاص الذين يعانون من: الجنون، الصرع، إدمان الكحول، الفقر، والإجرام، والشذوذ الجنسي ومشاكل العقلية؛ من أن يلدوا من هم في نفس الحالة.<sup>2</sup>

تحسين النسل بعبارة أخرى هو إبادة لكل جنين هو مشروع شخص "معاق" وفرد معيق للتنمية سيكبد الدولة عناء رعايته وتأمين له العيش لأنه بمثابة عبئ؛ فقد تم "سن قانون التعقيم الأول في ولاية إنديانا عام 1907 (..) ووجه بالأساس "لضعاف القدرات العقلية" ليتم نشره على نطاق واسع ليشمل العديد من المهاجرين الجدد وغيرهم من الأشخاص الذين اجتازوا بشكل سيء اختبارات الذكاء لأهم كانوا أميين وظيفيًا أو يتحدثون الإنجليزية بالكاد)، امتدت هذه القوانين لتشمل ما يسمى بالمنحرفين الجنسيين، مدمني المخدرات، السكرى، مرضى الصرع والمرضى الآخرون.<sup>3</sup> إن الشخص في وضعية إعاقة هو منحرف بالمعنى الاجتماعي عن المعايير والقوالب الموجودة مسبقا الراسمة للمجتمع المثالي المنتج والرأسمالي، إذن منع إنجاب طفل من إعاقة هو ردع لكل أشكال التشوهات التي يمكن أن تؤثر على إنتاجية الأفراد وصورة الكمال الجسدي في المخيال الجمعي؛ حاول التقدم الطبي تدعيمه عبر حرمان الأشخاص في وضعية إعاقة من الإنجاب وإعادة إنتاج إعاقتهم عبر سياسة التعقيم.

إذا كانت عملية تحسين النسل حكمت على الشخص في وضعية إعاقة إلى جانب الأقليات أخرى بعدم التكاثر عبر التعقيم؛ ففي ألمانيا كان الأمر أكثر سوء وحاطاً من الكرامة الإنسانية عبر سياسة لا تقل سوءاً؛ سميت بالتنقية العرقية Racial Hygiene؛ تأسست التنقية العرقية الألمانية في عام 1895 بعد حوالي عشر سنوات من علم تحسين النسل لجالتون؛ بواسطة عالم فيزيائي ألفريد بلوتز Alfred Plötz واستندت إلى نفس التحليل للمشاكل الاجتماعية مثل البريطانيين والأمريكيين.

"دعت جمعية الطب النفسي الألمانية إلى قتل الأطفال المتخلفين عقلياً منذ سن الخامسة فما فوق. تمت صياغة الحجج بعبارة إنسانية مثل: يجب أن يقتنع أب الطفل المصاب بالشلل أو ضعيف الذهن أنه على الرغم من أن لديه التزاماً أخلاقياً بالرعاية بالنسبة لهذه المخلوقات التعيسة، لا ينبغي إلزام المجتمع الأوسع بتحمل التكاليف الهائلة. في ذات السياق تذكر بنتلي

<sup>1</sup> فرانسيس جالتون (16 فبراير 1822-17 يناير 1911) ابن عم تشارلز داروين؛ من مهندسي عملية تحسين النسل، مستعملاً علوم الإحصاء وعلم تحسين النسل. عرف باهتماماته الأثرولوجيا والسوسولوجيا.

<sup>2</sup>Ruth Hubbard. *Abortion and Disability Who Should and Who Should Not Inhabit the World?*. The Disability Studies Reader. Routledge Taylor & Francis Group.2016. Second Edition. p93

<sup>3</sup> Ibid.p95

جلاس Bentley Glass بعدم تمتع الوالدين "بالحق في تحميل المجتمع عبئًا مع طفل مشوه أو غير كفء عقليًا"<sup>1</sup>. إثر هذه الأفكار القاسية تجاه هذه الفئة تم إرسال استمارات التقييم إلى مؤسسات الطب النفسي للبالغين لاختيار ما يسمى بالقتل الرحيم. وبحلول شتبر 1941 قُتل أكثر من 70000 نزيل في بعض من أشهرهم مستشفيات الأمراض النفسية في ألمانيا. تم قتل معظم المرضى بالغاز أو قتلهم بالحقن بالعقاقير القانونية، لكن قلة من الأطباء كانوا مترددين في التدخلات الطبية الواجبة عليهم؛ وسمحوا لهؤلاء الأطفال بالموت من الجوع البطيء والأمراض المعدية التي أصبحوا عرضة لها إثر الإهمال. تم التعامل مع مجموعة من الأقليات عبر التاريخ بكثير من الاحتقار والقهر والاستبعاد ولعل قتل الشخص في وضعية إعاقة مخافة إعادة إنتاجه خصوصًا أن بعض الإعاقات تلعب الوراثية دورًا مركزيًا فيها؛ كان من بين أقسى الممارسات السياسية سوءًا في التاريخ البشري. لكن رغم أن هذه الممارسات التي ارتبطت بالماضي هذا لا يعني انتهاء الرغبة في إنهاء الحمل بمشروع شخص في وضعية إعاقة مستقبلاً لذلك ظهرت أشكال جديدة من القيود على حياة هذه الفئة من بينها الاجهاض الانتقائي.

### 3-3 كيف تقرر النساء عقب نتائج الاختبارات الحمل، وكيف تؤثر المواقف تجاه الإعاقة على اختياراتهن؟

عرفت تجربة الحمل تغيرات مهمة بفضل التقدم التكنولوجي في طرق وتقنيات مراقبة الحمل منذ السبعينات؛ فقد أصبحت النساء الحوامل قادرات على الاستفادة من اختبارات الحمل والفحوصات كالموجات فوق الصوتية من أجل تشخيص وضعية الجنين ومدى سلامته الجسدية وتطوره من أجل تصنيف الجنين كجنين سليم أو "معاق". ونتيجة هذا التطور أصبحت النساء تتعرضن حسب Marsha Saxton لضغوط متزايدة لاستخدام اختبارات وكشوفات ما قبل الولادة كممارسة ثقافية جديدة وباعتبار أن هذا "الشيء هو الذي يجب القيام به؛ يتم التدرج بالخوف على صحة الجنين، ولكن في الواقع ترى مارشا أن الهدف الأساسي هو فحص الأجنة المعاقة من أجل إجهاضها في بداية الحمل.

بصفتها عالمة الأحياء النسوية؛ عبرت روث هوبارد عن ذلك أيضا عبر القول: "من المتوقع أن تنفذ النساء تحيزات المجتمع المتعلقة بتحسين النسل من خلال "اختيار" إجراء الاختبارات المناسبة و"اختيار" عدم بدء أو إنهاء الحمل في كثير من الأحيان، تضيف هوبارد الآباء المحتملون لم يفكروا في مسألة الإعاقة أبدًا حتى تم طرحها فيما يتعلق باختبار ما قبل الولادة من طرف المحيط. تضيف هوبارد: "لقد قابلت النساء اللواتي أجهضن على أساس نتائج الاختبار؛ كانت قصصهم وقراراتهم صعبة مؤثرة للغاية. فقد اتخذن القرارات التي شعرن أنها الوحيدة الممكنة لهن، بالنظر إلى المعلومات التي تم توفيرها لهن من طرف الأطباء ومهني الصحة والمجتمع."<sup>2</sup>

حاولت هوبارد رصد درجة كبيرة من التحيز الممارس تجاه الأجنة "المعاقلة" من طرف المجتمع الراض بطريقة ضمنية إنجاب طفل مع إعاقة، إضافة إلى مهني الصحة الذين يحثون على ضرورة القيام بالفحوصات الأولية من أجل الاطمئنان على صحة الطفل والأم. وحتى في ظل انتشار الأفكار التحريرية أي -لكل فرد حرية التصرف-؛ إلا أن المجتمع يمارس بطريقة هادئة الرقابة

<sup>1</sup>Ruth Hubbard. *Abortion and Disability Who Should and Who Should Not Inhabit the World*. Op.Cit. p97

<sup>2</sup>Ruth Hubbard. *Abortion and Disability Who Should and Who Should Not Inhabit the World*. Op.Cit. Ibid.p 109-110

على الأمهات الراغبات في إنجاب أطفال مع إعاقة بطرق غير مباشرة؛ خصوصاً أن الصورة التي ينقلها الإعلام والسينما عن الأطفال في وضعية إعاقة هي صور نمطية تضع هذه الفئة انطلاقاً من المشاهد الإعلامية في مأساة وصراع دائم من أجل إثبات الذات وتجاوز العراقيل المادية و الرمزية التي تواجهها هذه الفئة في المجتمع، وحتى الطواقم الصحية بحكم احتكاكها الدائم مع الأشخاص في وضعية إعاقة في إطار تقديم الرعاية والعناية الطبية؛ ينظرون إلى الأطفال في وضعية إعاقة من منظور المعاناة ونقصي جودة الحياة؛ نتيجة المشاكل الصحية التي يمكن أن تكون ناتجة لا فقط عن طبيعة الإعاقة بل نتيجة القيود الممارسات النابذة لهذه الفئة.

تشكل إمكانية "ولادة طفل معاق قوة مدمرة ومشتتة للأسرة، لأن المجتمع يرى بشكل عام أن الإعاقة أمر مؤسف، فمازالت المجتمعات تحاول إثبات أنها متقبلة للأشخاص في وضعية إعاقة؛ لكنها ضمناً تحت على إنهاء حياة الأجنة المريضة أو المعاقة. وبفضل الثورة التكنولوجية أصبحت إمكانيات اختبارات الحمل ممكنة عبر اختبارات ما قبل الولادة المصممة للكشف عن حالة الجنين عبر الموجات فوق الصوتية، فحص البروتين الجنيني في مصل الأم، أخذ عينات من خلايا المشيمة، وبزل السلى. يعتبر اختبار بزل السلى الاختبار الكاشف لمجموعة كبيرة من العيوب الخلقية والإعاقات المستقبلية ويقدم للنساء فوق (35) سنة قصد التأكد من سلامة الجنين في علاقته بعمر الأم؛ ولكن منذ السبعينات تعالت أصوات بضرورة تعميمه على كل النساء الحوامل بغض النظر عن عمرهن من أجل منحهن حق تقرير الاستمرار أو إنهاء الحمل داخل السياق الأمريكي مثلاً الذي لا يجرم الاجهاض ولا يحرمه.

#### 4-1 الأصوات المناهضة لإجهاض الأجنة "المعاقه".

تشير ديب ماركس Deb Marks إلى أن الأشخاص ذوي الإعاقة يجسدون مشكلة كبيرة للمجتمع غير المعاق لأنهم يعطلون - يعرقلون- الفرد المعياري: فالفرد في وضعية إعاقة؛ يعطل الثقافة المؤكدة على السيطرة الجسدية والمعايير الثقافية المرتبطة بالأخلاق والتوافقات المقدمة للسلوك الجسدي؛ فالأشخاص الغير قادرين على الكلام يشكلون مشكلة للقادرين عليه، و الأشخاص العاجزون عن المشي يشكلون تجربة مأساوية، تضرب في صورة التنقل المثالي لجهاز الحركي المستقل. الأشخاص الذين يعانون من صعوبات في التعلم، يفشلون في تلبية والتماهي مع مراحل التطور وبالتالي يتم إهمالهم من قبل المؤسسات التعليمية لعدم ملاءمتهم للصلاحيات والانتظارات التعليمية؛ الأفراد الذين يعتمدون على الآخرين - أو يحتاجون إلى مساعدة الآخرين من أجل العيش، ليسوا أفراداً على الإطلاق فهم عبء.<sup>1</sup> وبذلك يتم تجنب من هم في هذه الوضعية أو يتم اللجوء لوضع حد لهم عبر عملية إجهاض انتقائي قبل مجيئهم لهذا العالم.

لكن نشطاء حقوق الإعاقة سرعان ما سينتفضون أمام هذا الوضع كرد فعل على الممارسات القاسية؛ كالتنقية العرقية وتحسين النسل في كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا؛ مؤكدون على ضرورة التمتع بالحق " في عدم الاضطرار

<sup>1</sup> Dan Goodley. Dis/entangling Critical Disability Studies. Dis/entangling Critical Disability Studies. ISABILITY STUDIES • BODY – POWER – DIFFERENCE • 2017. VOLUME 10 p. 91

إلى الإجهاض". يعتقد المدافعون عن حقوق ذوي الإعاقة في هذا الصدد أن النساء ذوات الإعاقة لهن الحق الكامل في إنجاب الأطفال وأن يصبحن أمهات، وأن لجميع النساء الحق في مقاومة الضغط من أجل الإجهاض عندما يتم التعرف على جنين من المحتمل أن يكون من ذوي الإعاقة.<sup>1</sup> تشير Marsha Saxton أن مناضلي حقوق الإعاقة والعديد من الأشخاص ذوي الإعاقة ينظرون إلى أنفسهم على أنهم جزء من أقلية مميزة ويرفضون الصور المنتشرة النمطية للأشخاص ذوي الإعاقة على أنهم معيبون ومرهقون وغير جذابون. وبالتالي فلهم الحق في الزواج والانجاب حتى لو كان الأمر سيعيد إنتاج أطفال في نفس الوضعية. إن نضالات هذه الحركات والنشطاء تجاوزت النضال من أجل ولوجيات والحق في التعليم والشغل أو العيش المستقل، إلى الحق في الاعتراف بهذه الفئة كفئة مختلفة؛ في إعاقتها تنوع وليست عبئاً أو مشكلاً لا بد من تعبئة الجهود من أجل حله.

#### - 5-1- وجهة النظر الدينية (بين التحريم: التحفظ والجواز نقاش 40 أو 120 يوم)

#### 5-2- الإجهاض اشكالية فقهية:

شكل الإجهاض موضوع جدال واسع داخل النقاشات الفقهية ونقطة اختلاف بين المذاهب الخمسة في الإسلام، ويمكن تعريفه من الناحية الفقهية باعتباره تلقائياً أي سقطاً، إلقاء أو طرحاً؛ كإملاص أي حدث غير مخطط له بسبب بعض العوامل الفسيولوجية. أو إجهاضاً متعمداً وهو تدخل متعمد يهدف إلى إنهاء حياة الجنين؛ عندما يكون الإجهاض عفويًا، يتم تفسيره على أنه إرادة الله ولا لوم على أي فرد. أما الإجهاض المتعمد كثيراً ما ناقش الفقهاء الأحكام المتعلقة به.

اتفق الفقهاء الأوائل على منع الإجهاض المتعمد بعد 120 يوماً من الحمل أي بعد نفخ الروح في الجنين. أما بالنسبة للإجهاض قبل 120 يوماً، فقد تم التعبير عن آراء مختلفة يمكن تلخيصها في ثلاث أو أربع فئات رئيسية: مسموح بها دون قيد أو شرط؛ يجوز إذا كان هناك عذر، مستهجن وممنوع، لكل من هذه الآراء دعاة معاصرون. ومن الأعداء المقدمة من قبل بعض الفقهاء في إيجاز الإجهاض؛ نجد فقر الوالدين؛ مما يجعلهما غير قادرين على توفير الحليب أو الطعام الضروريين للطفل المرتقب. كما قاموا بالأخذ أيضاً بالأعداء الطبية مثل مرض الأم المسبب في الإجهاض.

أنتجت التطورات العلمية الحديثة احتمالية جديدة لم يتم تناولها من قبل الفقهاء الأوائل، أي حالة الجنين المعاق؛ فبفضل التطورات العلمية أصبح بالإمكان إجراء فحص ما قبل الولادة من أجل تحديد الاضطرابات الوراثية للجنين وهو في الرحم ليتمكن علاج بعضها في الرحم وللحالات الغير قابلة للشفاء يمكن للوالدين اختيار إتمام الحمل أو توقيفه. لكن يبقى السؤال المطروح: هل يمكن القبول بإجهاض جنين في وضعية إعاقة من الناحية الفقهية؟

<sup>1</sup>Marsha Saxton. *Disability Rights and Selective Abortion*. The Disability Studies Reader. Routledge Taylor & Francis Group.2016. Second Edition.p108

## 5-2- هل يجوز للوالدين إجهاض جنين معاق؟

إن الباحث عن الموقف الديني الصريح انطلاقاً من تأويل النص الدين عن الفقهاء الأوائل لن يجد رأي صريحاً في ما يخص إجهاض جنين معاق لأن إمكانيات العلم والكشف كانت غير قادرة على تحديد الإعاقاة قبل الولادة. وبالرغم من عدم وجود رأي صريح إلا أنه من المحتمل توقع آراء بعض الفقهاء في حالات معينة. على سبيل المثال قبل 120 يوماً، يُسمح بالإجهاض لأولئك الذين قالوا إنه غير مشروط وجائز، وأمر يستتبع الذنب لمن يرى أنه ذنب بشكل عام، ويحرم على من حرم الإجهاض في كل حالة. ويصدق الشيء نفسه لمن يصبر على أن الإجهاض بعد 120 يوماً ممنوع في جميع الأحوال. ومع ذلك من غير الممكن التنبؤ بالرأي المحتمل لهؤلاء الفقهاء الأوائل الذين يسمح بالإجهاض عند وجود عذر. فهل سيكون وجود جنين معاق عذر كافٍ لإنهاء الحمل؟

يجب أن نشير هنا إلى حديث الفقهاء الذين اضطروا إلى معالجة هذا الوضع الجديد عبر اتخاذهم عاملاً رئيسياً في صياغة الفتاوى حول هذا الموضوع: أولاً: مدة الحمل، ثانياً خطورة الخلل أو الاضطراب أو شدة معاناة الرضيع بعد ولادته وفي حياته كاملة. إذ يضع غالبية العلماء هذين العاملين في الاعتبار وبالتالي يتم السماح بالإجهاض في حالة الاضطرابات الشديدة والمستعصية طالما أن الإجهاض أجري؛<sup>1</sup> قبل 120 يوماً؛ وحسب البعض الآخر قبل أربعين يوماً. لكن هذا لا يمنع أن تقدير شدة الاضطراب والألم والمعاناة الناجمة عليه هي مسألة ذاتية؛ فبعض الإعاقات مثل العمى والصمم مستثنى من الأعدار المقبولة في الإجهاض من الجانب الفقهي. الأساس المنطقي لهذا الحكم المضاد للإجهاض يمكن تلخيصه في موقف فقهاء المسلمين في الآتي: أولاً، كل إنسان هو من خلق الله ولا يجوز لأحد أن "يلعب دور الله" ليقرر إنهاء حياة إنسان آخر. ثانياً، السعادة وجودة الحياة ومصطلحات ذاتية ولا يمكن لأحد التحدث عن شخص آخر أو بالنيابة عنه؛ ولمن سلطة معرفة ما إذا كان الطفل المتأخر أو طفل متلازمة داون غير سعيد غير هو نفسه مثلاً؟ وغالباً ما يتم إسقاط انتظارات -الأصحاء- على حياة المعاقين، ولكن هذا ليس بالضرورة صحيحاً. أما بالنسبة للعمى والصمم وما في حكمهما، فإن شخصيات معروفة عبر التاريخ عاشت مع مثل هذه الإعاقات. وبالتالي لم يتم منعهم من المشاركة بنشاط في الحياة.<sup>2</sup> في الأخير لا يمكن الوصول لحل أو فتوى نهائية جازمة في قضية إجهاض الأجنة في وضعية الإعاقاة.

## 6- الإجهاض في صلب النقاش الفقهي والقانون بالمغرب:

تشكل قضية تقنين الإجهاض إحدى أهم القضايا التي شغلت المغرب في العشرين سنة الأخيرة خصوصاً أن هنالك تعارض صريح بين اتجاه يدعم الإجهاض باعتباره حق من حقوق الإنجابية المتعلقة بحرية التصرف بالجسد وتقرير المصير في تماش مع المواثيق الدولية والمرجعية الحقوقية الدولية؛ التي تعتبر حقوق المرأة غير متعارضة مع حقوق الطفل؛ هذا الأخير الذي لا يتمتع بهذه الحقوق إلا بعد ولادته؛ ونقطة التعارض مع الاتجاه الثاني هي مسألة اعتبار الطفل له حقوق بمجرد الولادة في حين

<sup>1</sup> Ghaly Mohammed. *Islam and Disability Perspectives in theology and jurisprudence*. Routledge Taylor & Francis e-Library, 2010. First published. p 122

<sup>2</sup> Ibid. p 123

أن المرجعية الدينية اعتبرت الجنين ذا حقوق بمجرد نفخ الروح فيه، عكس المرجعية الدولية لحقوق الإنسان التي لا تعترف بحقوق الجنين في مرحلة الإخصاب أو مراحل تطوره في فترة الحمل. وذهبت المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان إلى رفض اعتبار الجنين "شخصاً" أو مواطن له حقوق إلى بعد ولادته. وتنص أيضا اتفاقية "القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة (CEDAW) أن الأمومة اختيار حر للمرأة، وتنص المادة 16 من الاتفاقية على أن تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير المناسبة للقضاء على التمييز ضد المرأة في كافة الأمور المتعلقة بالزواج والعلاقات العائلية، وعلى أساس المساواة بين الرجل والمرأة.

إن النقاش الفقهي يتعارض تماما مع نقاش الحركات النسوية الداعمة لطرح الإجهاض باعتبار الأم هي القادرة على تقرير مصيرها من جهة، والمنظمات الداعية للتقنين وعد تجريم الإجهاض في ضمان للسلامة الصحية للأم عند القيام به؛ وهو ما سمته منظمة الصحة العالمية "الإجهاض الآمن" باعتباره "تدخلٌ صحيٌّ شائعٌ ومأمونٌ عند إجرائه بأحد الأساليب التي توصي بها المنظمة وتتناسب مع مدة الحمل وعلى يد شخص يمتلك المهارات اللازمة"<sup>1</sup> وفي ذات السياق يشير و كريغ ليسن، مدير قسم الصحة الجنسية والإنجابية والبحوث في منظمة الصحة العالمية إلى: "أن القدرة على الحصول على إجهاض آمن هو جزء أساسي من الرعاية الصحية. يمكن، تقريبا من الوقاية بالكامل من كل حالة وفاة أو إصابة ناجمة عن الإجهاض غير الآمن. لهذا السبب نوصي بتمكين النساء والفتيات من الوصول إلى خدمات الإجهاض و تنظيم الأسرة عندما يحتجن إليها"<sup>2</sup>. ومن جهة ثانية يتوافق النقاش الفقهي في تحريمه للإجهاض مع الحركات المناادية بالحق في الحياة بشكل عام وحركات الدفاع عن حقوق المعاقين بشكل خاص. هذا التوافق يتجلى في الحق في الحياة للطفل في وضعية إعاقة بالرغم من إعاقة غير أن النص الفقهي يعتبر هذا الحق في ملك الله وهو الوحيد الذي يمنحه أو يمنعه عن الأفراد؛ بينما حقوق الإعاقة يعتبرون الشخص في وضعية الإعاقة له الحق في الحياة من الجانب الأخلاقي بغض النظر عن الإعاقة؛ فهذه الأخيرة واقع حياة واختلاف وليست دائما مأساة.

إذن الحديث هنا بشكل كبير عن الإجهاض بشكل عام؛ ولا يشكل الحديث عن موضوعنا إجهاض الأجنة "المعاقة" إلى جزئية في النقاش العالمي أو العمومي الوطني الذي ارتبط في جزء منه "بأشغال المناظرة الوطنية التي نظمتها وزارة الصحة حول الإجهاض يوم 11 مارس 2015، حيث انتقد الباحث عبد الصمد الديالمي القراءة الفقهية التي قدمها رئيس المجلس العلمي بوجدة مصطفى بنحزمة حول الإجهاض من منظور فقهي، وصفه الباحث بأنه "موقف مُتمذهب" في إشارة لتغيب موقف باقي المذاهب الإسلامية. وأكد أن المذهب المالكي هو وحده الذي يحرم الإجهاض منذ الحمل، عكس المذاهب الأخرى، التي "تبيح الإجهاض إلى حدود نهاية الأربعين يوما بعد الحمل، أي قبل التخلق في نظر الشافعية والحنبلية، أو إلى نهاية الشهر الرابع قبل نفخ الروح عند الحنفية"<sup>3</sup>. في نفس المناظرة صرح مصطفى بن حمزة "أنه لا يجوز التصرف في حياة الجنين إلا إذا كان يشكل

<sup>1</sup> منظمة الصحة العالمية. الاجهاض. نوفمبر 2021. تمت زيارة الموقع <https://www.who.int/ar/news-room/fact-2023-07-13> sheets/detail/abortion

<sup>2</sup> الأمم المتحدة. منظمة الصحة العالمية: الوصول إلى الإجهاض الآمن ضروري لصحة النساء والفتيات. 22 مارس 2022. تمت زيارة الموقع <https://news.un.org/ar/story/2022/03/1095952023>.

<sup>3</sup> محمد حنين. الحركة النسوية وعسر التحول الديمقراطي بالمغرب: جدل الإجهاض نموذجا. مجلة انسانيات. 2016. تم زيارة الموقع <https://journals.openedition.org/insaniyat/16915#ftn20>.

خطراً حقيقياً على صحة الأم، ويحرم إجهاضه لمجرد الرغبة في إخفاء الحمل أو تحت ذريعة وجود تشوهات خلقية قد تكون في بعض الأحيان بسيطة أو لكون الحمل ناتجاً عن زنا المحارم، لأنه لا يحق تحميل الجنين أثر فعل لا يد له فيه".

وطالب وزارة الصحة ببذل المزيد من الجهود على المستويين العلمي والطبي من "أجل الاستباق والوقاية من تشوهات الجنين لتقليل من فرص ظهورها"<sup>1</sup>. إذن من هذا المنطلق فإن المذهب المالكي لا يجيز الإجهاض بشكل عام ومنه نستشف أنه يمنع الإجهاض في حالة تشخيص جنين بإعاقة مستقبلية، ليبقى المبرر الشرعي الوحيد للإجهاض هو تعريض صحة وحياة الأم للخطر. وإذا كانت المرجعية المالكية بالمغرب تحرم الإجهاض فنص القانون باعتباره امتداداً للشرع "ينص في القانون الجنائي المغربي على تجريم الإجهاض من خلال عشرة فصول ضمن الباب الثامن المتعلق بالجنايات والجرح ضد نظام الأسرة والأخلاق العامة، من خلال الفصول من 449 إلى 458. وقد كان الفصل 453 من القانون الجنائي الصادر في 17 جوان 1963 لا يعتبر الإجهاض مُجرماً ولا يعاقب عليه إذا كانت حياة الأم في خطر، ثم وقع تعديله بمقتضى المرسوم الملكي المؤرخ في 1 جويلية 1967 الذي ينص على أنه لا عقاب على الإجهاض إذا استوجب ضرورة المحافظة على صحة الأم متى قام به علانية طبيب أو جراح بإذن من الزوج، ولم تخضع منذ هذا التاريخ لأي تعديل"<sup>2</sup>. وهذا المعنى فالمشروع بدوره يجرم الإجهاض بشكل عام إلا في حالة تعريض حياة الأم للخطر.

#### خلاصة:

شكلت قضية إجهاض الأجنة "المعاقبة" أو مشاريع الأشخاص في وضعية إعاقة نقطة تقاطع بين مجموعة من التخصصات العلمية والدينية والاجتماعية، لأن الموضوع تتداخل فيه العوامل الأخلاقية كمثلاً الحق في الحياة باعتباره معطى أخلاقي؛ ومن جانب آخر فالظروف الاجتماعية والاقتصادية من الممكن أن تجعل رعاية طفل في وضعية إعاقة أمر مكلفاً مادياً في ظل غياب البنيات الكفيلة لولوج هذه الفئات للحياة الاجتماعية؛ هذا من جهة ومن جهة ثانية الثقل الثقافي والرمزي للإعاقة يجعل منها "معاناة ومأساة" فردية للطفل في وضعية إعاقة وجماعية للأمة والأسرة ككل. ولكن الحركات المدافعة عن حقوق الأشخاص في وضعية إعاقة ترى أن من حق هذه الفئة الحياة مهما كان نوع الإعاقة لأنهم مجتمع يعج بالاختلاف في مقارنة مع المجتمع غير المعاق ويجب على هذا الأخير احترام هذا الاختلاف وتقبله بشكل عادي دونما شفقة أو استعلاء. أما الجانب الديني في الإسلام فقد كانت بعض المذاهب حاسمة فيما يخص تحريمه بالمطلق وأخرى تجيزه في حالات خاصة وقبل مدة معينة سيما الحنبلية والشافعية التي تجيزه قبل 40 يوماً في حين الحنفية تقول قبل 120 يوماً.

<sup>1</sup> المرجع نفسه.

<sup>2</sup> المرجع نفسه.

## قائمة المراجع:

- Adrienne Asch, Prenatal Diagnosis and Selective Abortion: A Challenge to Practice and Policy. American Journal of Public Health. November 1999, Vol. 89, No. 11.
- Andreas Sturm. The Experience of Pain, Disability Identity and the Disability Rights Movement. Culture – Theory – Disability Encounters between Disability Studies and Cultural Studies. DISABILITY STUDIES • BODY – POWER – DIFFERENCE • VOLUME 10.2017.
- Bill Hughes. Fear, pity and disgust: emotions and the non-disabled Imaginary. ROUTLEDGE HANDBOOK OF DISABILITY STUDIES.2012
- Dan Goodley. Dis/entangling Critical Disability Studies. Dis/entangling Critical Disability Studies. ISABILITY STUDIES • BODY – POWER – DIFFERENCE. VOLUME 10.2017
- Donna Reeve. Psycho-emotional disablism: the missing link?. ROUTLEDGE HANDBOOK OF DISABILITY STUDIES. Routledge.2012.
- Mohammed Ghaly. Islam and Disability Perspectives in theology and jurisprudence. Routledge2010.
- Ruth Hubbard. **Abortion and Disability Who Should and Who Should Not Inhabit the World?**. The Disability Studies Reader. Routledge Taylor & Francis Group. Second Edition.2016
- Tobin Siebers. Disability in Theory From Social Constructionism to the New Realism of the Body. The Disability . Routledge.2017
- Vardit Rispler-Chaim. DISABILITY IN ISLAMIC LAW. Springer. VOLUME 32.2007.

## قائمة المراجع بالعربية:

- الأمم المتحدة. منظمة الصحة العالمية: الوصول إلى الإجهاض الآمن ضروري لصحة النساء والفتيات. 22 مارس 2022. تمت زيارة الموقع 13.07.2023. <https://news.un.org/ar/story/2022/03/109595>
- محمد حنين. الحركة النسوية وعسر التحوّل الديمقراطي بالمغرب : جدل الإجهاض نموذجاً. مجلة انسانيات.2016. تم زيارة الموقع 13-07-2023. <https://journals.openedition.org/insaniyat/16915#ftn20>
- منظمة الصحة العالمية . الاجهاض. نوفمبر 2021. تمت زيارة الموقع 13-07-2023. <https://www.who.int/ar/news-2023-07-13> room/fact-sheets/detail/abortion



## تراجم المدرّسين وصلتها ببرنامج التّعليم الدينيّ بتونس: قيام الدّولة الحسينيّة نموذجاً

The teaching Sheikhs biography and their links with the curricula of religious education in Tunisia:

The establishment of the Husseinide State as a case study

د. صدق السلامي / مركز الدّراسات الإسلاميّة بالقيروان- جامعة الزّيتونة، تونس

Dr. Sidk Sellami/Centre of Islamic Studies/ Kairouan, Zaitouna University-Tunisia

### Abstract :

Although the education reforms in Zaitouna Mosque were quite popular with Marshal Ahmad Pacha Bey, the true emergence of organizations started with H'usayn Bin Ali, the founding father of the Husseinide State, and was then continued by his successors. Such organizations had institutional features that imposed regulations and supervised their smooth course.

Despite the availability of data on this reform, we cannot find any clear assortment of the education curricula or course books. However, we manage to bring them into view by examining the translations of the teaching Sheikhs and religious actors in eighteenth century Tunisia. For instance, we can discern varying indications on the sciences and course books used in teaching and the teaching circles. Alternatively, we can disclose them by making an inventory of the education-related manuscripts, which are either copies of publications or new contemporary publications. We consider it beneficial to scrutinize them in order to demonstrate the establishments adopted since the Middle Ages or the changes attributed to the enrichment of religious education with texts pertaining to the Hanafi school of thought in order to have insights into the mainstream culture of that period.

**Key terms:** organization, Bey H'usayn Bin Ali, curriculum, manuscript, translations, teaching Sheikhs, Zaitouna.

## ملخص:

لئن اشتهرت إصلاحات التعليم بجامعة الزيتونة مع المشير أحمد باشا باي، فإن بوادر التنظيمات كانت مع مؤسس الدولة الحسينية حسين بن علي، ليتبعه خلفه. وهي تنظيمات لها طابع مؤسساتي بفرض الأوامر ومراقبة سيرها. ورغم وجود معطيات حول هذا الإصلاح إلا أننا لا نجد تبويبا واضحا لبرنامج التعليم وكتبه المقررة. في حين نتبئها بتتبع تراجم الشيوخ المدرسين والفاعلين الدينيين في القرن الثامن عشر بتونس. فنلفي إشارات متفاوتة حول العلوم والكتب المعتمدة في التدريس وحلقاته. أو نستقيها بجرد المخطوطات المتصلة بالتعليم وهي بين نسخ مؤلفات أو تأليف جديد في عصره. ونرى من المفيد تتبعها لبيان الثوابت منذ العصر الوسيط أو المتغيرات والإضافات الرجعة إلى تطعيم التعليم الديني بنصوص حنفية المذهب وذلك للولوج إلى الثقافة السائدة.

الكلمات المفتاحية: تنظيم- الباي حسين بن علي- برنامج- مخطوط- تراجم- شيوخ مدرسون- زيتونة.

## مقدمة:

لا يخفى على من يتتبع تاريخ الأفكار أنّ الذهنية بالمغرب الإسلامي قد تخيرت عددا من الكتب في العلوم الشرعية والعقلية واتخذتها مصدرا للمعرفة وتواصل العلوم جيلا بعد جيل. وتتبع تراجم المدرسين والفاعلين الدينيين في القرن الثامن عشر بتونس نلفي إشارات متفاوتة حول العلوم والكتب المعتمدة في التدريس وحلقاته. ونرى من المفيد قراءتها لبيان الثوابت أو المتغيرات في نمط الثقافة السائدة. ولعلنا لن نضيف جديدا يذكر إن قلنا إن العلوم تدور في فلك الديني وقلما وردت إشارات تعدل الكفة نحو العلوم العقلية. يتصدر القرآن وعلومه هذه المعارف، والقراءات فيها أبرز من التفسير، وحفظه غالب على تدبره. وتولي في علوم الحديث منزلة رفيعة للبخاري ختما وإقراء وحفظا. وللفقه مكانة أصيلة تجعله أشرف العلوم.

وما هو مؤكد أن تنظيم التعليم الزيتوني زمن حسين بن علي شمل ترانبيه بتعيين المدرسين وتوفير الرواتب وتجديد خزانة الكتب وحركة التحبيس، إلا أنه لم يغير برامج التدريس أو تعويض الكتب المتداولة بأخرى أي معاودة إنتاج السابق. وهو أمر نعدّه محددا أساسيا للثقافة وسم إنتاج الفكر بسمة العطل والعطالة في معناه الأنثروبولوجي. فقد اكتفت بالتليد تعيد إنتاج نُسخته إنتاجا متواترا دون تجديد الخلايا الفكرية التي تكون جماعه. فأقصى ما يطلب من العالم أن يجتزأ الموروث ويستلهم الزاد العقدي والثقافي باعتباره منظومة مغلقة وغير خاضعة لضغوط الزمن أو التاريخ. وقد ارتأينا النظر في الفترة الزمنية الأولى لتأسيس الدولة الحسينية لأنها غمطت حقها وانكبّ الدارسون على القرن التاسع عشر دون تتبع مراحل الإصلاح، وفهم انتظامه وغاياته ووسائله. وذلك وفق مسألتي نظر:

-أولاً: إصلاحات التّعليم وتنظيمات الدّولة في الفترة الحسينيّة الأولى وخاصّة عهد حسين بن عليّ. وفيها نظر في المنجز بين الفعل السياسي والاجتماعي وما توقّر له من وسائل قوّة رمزيّة وأخرى سياسيّة لتنظيم التّعليم ومأسسته واتّخاذ القرارات اللّازمة مع وصلها بغاياتها.

-ثانياً: تراجم المدرّسين وبرنامج التّعليم، فمع غياب سجلّات واضحة حول برامج التّعليم حاولنا تتبّعها من خلال التّراجم لبيان الصّفات المثاليّة للعالم وحركيّة التّعليم ومدى خضوعه للانتظام الصّارم من عدمه والكتب المقرّرة للتّعليم وما طرأ من جديد فيها وبيان مواقف منها تتّسم بالمعياريّة.

أولاً: إصلاحات التّعليم وتنظيمات الدّولة:

### 1- حسين بن عليّ باي ودوره في تنظيم الدّولة والتّعليم:

قلّما ارتبط التّعليم الدينيّ والتّعليم الرّيتونيّ في أذهان الدّارسين بتنظيم قبل الإجراءات الشّهيرة للمشير أحمد باشا باي (1837-1855) المعروفة بالمعلّقة الذهبية. ومفادها تعيين 30 مدرّساً بجامع الرّيتونة مناصفة بين المذهب المالكيّ والحنفيّ، وارتبطت الإصلاحات بهذا الباي خاصّة أنّ اسمه خلّد مع تحرير العبيد وإنشاء مدرسة باردو الحربيّة وتحبّيس مكتبته "الأحمدية" على جامع الرّيتونة. لكنّ سلفه المؤسس الأوّل الباي حسين بن عليّ<sup>1</sup> (1704-1735 قتل 1740) سبقه بتنظيم التّعليم الدينيّ، بحاضرة الملك تونس أو في مدن أخرى بعيدة عن مركز الحكم. وسنّجمل إنجازات هذا الباي بتونس<sup>2</sup> في:

-تأسيس مؤسّسات لها وظائف روحانية وتعليميّة بين مركّبات معماريّة أو مؤسّسات في تونس ومدن أخرى ومنها بناء تربة الباي ومدرستها، وتأسيس الجامع الجديد ومدرسته والاهتمام بمقامات الصّالحاء، فرمّمها وهذّبها وبنى المساجد بجوارها.<sup>3</sup> فقد أسّس حسين بن عليّ مدارس عرفت بالحسينيّة<sup>4</sup> وذلك سنة (1712/1124) وأنشأها قرب جامع الرّيتونة. ومن المعلوم أنّ تأسيس المدارس تقليد معروف.

-تسيير شؤون تلك المؤسّسات بتعيين الشيوخ وتنظيم الرواتب وتحبّيس الأوقاف والكتب، ورعايتها والفصل بين المذهبيين أو وصلهما. فالمدرسة الحسينيّة التي ستعرف لاحقاً باسم مدرسة النّخلة وقّف على طلبة العلم المالكيّة الأفريقيين وعددهم

1 - حول تنظيماته راجع دراستنا: السّلامي (صدق)، "مأسسة جامع الرّيتونة ونظام التّدريس قبل إصلاحات القرن التّاسع عشر"، مجلة كراسات إفريقيا (المعهد العالي للعلوم الإنسانيّة بجنّدوبة)، العدد، 2022، صص 121-146.

2 - لهذا الباي مآثر ومعالم داخل الإيالة ورد ذكرها في المصادر الإخباريّة.

3- الأندلسيّ الوزير السّراج (محمد بن محمد)، الحلل السّندسيّة في الأخبار التّونسيّة، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1986، ج3. وهي أخبار متفرّقة.

راجع أيضاً ما يذكره: حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق وتقديم للطاهر المعموري، الدّار العربيّة للكتاب، تونس-ليبيا، 1975.

4-خوجة، ذيل بشائر...، ص 103، السّراج، الحلل، ج 2، ص 560.

أربعة عشر<sup>1</sup>. وهو شأن المدرسة الحسينية الصغرى التي حبسها على الطلبة المالكية، مع تقديم رتبة يومية واتخاذ كتاب لتعليم الصبيان<sup>2</sup>. ولا يمكننا أن نغفل أنّ هذا الإجراء يقوم على شكل من أشكال الفصل، ف"يتعين النشاط التربوي، كعنف رمزي، وذلك بقدر ما تقوم عملية التمييز والعزل التي يستتبعها، بفرض وترسيخ بعض الدلالات بقدر ما تكون في لحاظ آلية الانتقاء وما تستلزمه من نبد<sup>3</sup>. فالفصل بين مدارس المذهبيين ليس عملاً مجانيًا، بل هو صادر عن وعي بخلفيات هذا الإجراء. وبذلك يتأكد عندنا أن التعليم مجال من المجالات الحيوية الضرورية، يتحقق من خلاله الانسجام الفكري بين أفراد المجتمع منه ينطلق النموذج التعسفي المختار. فالسلطة القائمة أرادت احتواء الأغلبية العظمى ووظفها لضمان تواصلها.

-تحسيس الكتب وهو ما سجّل في ترجمة الشيخ محمد الخضراوي "فالمنة لله ثم لهذا الأمير الموفق أن جعله في أيامه الزاهرة على خزائن العلم أميناً"<sup>4</sup>. ومثلها في ترجمة الشيخ محمد جعيط وهو ممن انتخبهم البايع للتدريس بمدرسة التربية بعد أن "عمر بخزائن الفنون العلمية أركانها"<sup>5</sup>. وبذلك خلّد حسين بن عليّ اسمه فقد بذل ماله لاقتناء الكتب وتوفيرها لطالبي العلم وعمّم فعل الخير<sup>6</sup>. وتحسيس خزائن الكتب تقليد معروف بات أمراً مألوفاً لذا سار خلف هذا البايع على نهجه وهو ما يشجّع على تلقّي المعرفة.

## 2- غايات التنظيم والإصلاح:

لقد أفنت المصادر التاريخية جهداً لصياغة خطاب تمجيد<sup>7</sup> قارنت بين صفات البايع وابتناء المدارس وإحياء العلم لما فيه من إحياء الشريعة وهو من سمات الملوك. فقد ارتبطت سيرة البايع حسين بهذا الإلزام لئلا يثبني خطاباً يُعلي شأن وليّ النعمة "ومن جميل هذا الأمير الفاضل -أسعده الله تعالى في الدارين- مدده الذي عمّ جميع المدرسين وألزمهم التدريس بالجامع الأعظم جامع الزيتونة حتّى صبر جنود الطلبة تطير إليه سرعاً، تغتنم من بيده ملتقطاً..."<sup>8</sup>. فصياغة الخطاب على هذه الشاكلة تُوجي بحال موات قبل اعتلاء حسين بن عليّ العرش. ويلاحظ فيه تشبيه الطلبة بالجنود وكأننا أمام حالة استنفار واندفاع، وهي صورة وإن كانت في باب المجاز فإنها تستمدّ عناصرها من الطابع العسكريتاري للحكم.

<sup>1</sup>- ابن الخوجة (محمد)، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، تحقيق الجيلاني بلحاج يحيى وحمادي السّاحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1985، ص: 309.

<sup>2</sup>- م، س، ص: 310.

<sup>3</sup>- بورديو (بيير)، العنف الرمزي (بحث في أصول علم الاجتماع التربوي)، ترجمة نظير جاهل، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ص: 10.

<sup>4</sup>- الحلل...، ج 3، ص 142.

<sup>5</sup>- الحلل...، ج 3، ص 136.

<sup>6</sup>- ينظر: السعداوي (أحمد)، تونس في القرن السابع عشر وثائق الأوقاف في عهد الدايات والبايات المراديين، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمتنوبة ووحدة البحث "المدن التاريخية التونسية والمتوسطية"، تونس، 2011.

<sup>7</sup>- السعداوي (أحمد)، تونس زمن حسين بن عليّ وعليّ باشا 1705-1756 وثائق أوقاف العهد الحسيني، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمتنوبة ومخبر الآثار والعمارة المغربية، تونس، 2015.

<sup>8</sup>- درسنا وجوه هذه الظاهرة في: السلامي (صدق)، "البايع حسين بن عليّ ورجال القلم، بين التشريع المذهبي والتوظيف السياسي لبناء الدولة"، مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية (مركز جيل البحث العلمي بلبنان)، العدد 96، أبريل 2023، ص.ص 47-63.

<sup>8</sup>- الحلل...، ج 3، ص 347.

فهل اندرجت سياسة الباي حسين بن علي ضمن استراتيجيته في تقريب العنصر المحلي أمام العنصر التركي، ومحاولة التقرب من الشيوخ المالكية؟ وهو الغرض الواضح للعيان من تأليف "الشهب المخرقة لمن ادعى الاجتهاد لولا انقطاعه من أهل المخرقة"، بطلب من الباي لبيان عزيز مكانة المالكية<sup>1</sup>. ورد في ترجمة أحمد بن مصطفى الطرودي الحنفي أنه "أقرأ بالجامع الأعظم - جامع الزيتونة الفقه الحنفي وتولى إمامة مدرسة القائد مراد الأصفر ثم جذبه الأمير - أسعده الله - إلى خطبة منبره بجامع باردو وأولاه إمامة الخمس بجامع القصر والمدرسة اليوسفية وروايتها، لما توفي شيخها هبة الله أفندي"<sup>2</sup>. وهي تعد من الإشارات الأولى حول تدريس الفقه على المذهب الحنفي بجامع الزيتونة. فقد أسس العهد الحسيني بتونس إجراءات لمأسسة فضاءات التعليم وتوحيد البرامج بها وتخصيص الأوقاف. إن توحيد التعليم يساهم في نسج سلوك عام موحد بفرض برامج وتوجهات ورؤى فكرية ومذهبية وعقدية. فالمسألة لا تتصل بجدة البرامج في حد ذاتها، إنما تتمثل في خلق تجانس بين عناصر المجموعة الواحدة وقد عرفت فترة البايات الحسينيين منذ تأسيسها ببيدات تشكّل وعي بهوية محلية. هذا وتؤكد الدراسات التاريخية والحضارية مياسم التنظيم الإداري التي طبعت فترات الحكم العثماني بتونس. ومنها التعليم وقد شهد إحاطة الدولة بالمؤسسات وتنظيم الجرايات والسهر على الاحتفالات الدينية، كما وثقه العروسي المبزوري<sup>3</sup>.

أشرف حسين بن علي على مأسسة التعليم، بضبط عدد المدرسين ومنح الجرايات في جامع الزيتونة. وكان له الفضل في تموقع المذهب الحنفي في جامع الزيتونة بتعيين رجاله وعقد حلقات الدروس وتأسيس كتب المذهب حتى إن كان عدد الشيوخ المرتبين محدود العدد فإنها إشارة تكتسي أهميتها لفهم تاريخية<sup>4</sup> (historisité) الصلة بين المذاهب والحراك الديني والاجتماعي. وما يعيننا في هذا السياق أنّ حسين بن علي قام بمحاولة مبكرة تروم تنظيم التعليم بجامع الزيتونة وغيره من مؤسسات التعليم.

### 3- التوظيف بأمر علي لتنظيم التعليم بجامع الزيتونة ومؤسسات أخرى:

لم يشمل تعيين الشيوخ المدرسين جامع الزيتونة فحسب إنما تعداها إلى جوامع أخرى ومدارس داخل تونس وغيرها من الحواضر. وسنكتفي بالتنبيه إلى مؤسسات دينية خضعت لسلطة المخزن داخل الحاضرة مما يفتح لنا المجال لتأكيد الطابع المؤسسي أي "مأسسة الديني والثقافي" حسب عبارة المنكبين على مباحث علم الاجتماع الديني. وهي مؤسسات بين الجامع والمدرسة والزاوية والمدرسة الملحقة بالجامع أو ما يعرف بالمركب المعماري:

<sup>1</sup> - برناز (أحمد)، الشهب المخرقة لمن ادعى الاجتهاد لولا انقطاعه من أهل المخرقة، تحقيق وتقديم الطاهر المعموري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1990، ص 364.

<sup>2</sup> - الحلل...، ج 3، ص 119.

<sup>3</sup> - المبزوري (العروسي)، التعليم في تونس منذ قيام الدولة الحسينية إلى انتصاب الحماية، دكتوراه، إشراف وسيلة بلعيد حمدة، جامعة الزيتونة، المعهد الأعلى لأصول الدين، 1993 / 1994.

<sup>4</sup> - Paul Veyne, Comment on écrit l'Histoire suivi de Foucault révolutionne L'Histoire, éds seuil, Paris, 1971-1978.

- Gilles Deleuze & Felix Guattari, *Qu'est-ce que La Philosophie?*, Les Editions de Minuit, 1991, p6.

الجوامع	المدارس <sup>1</sup>	الزوايا
جامع الزيتونة وجامع القصر وجامع محمد باي وجامع القصبة، جامع الحلق، جامع سبحان الله، مسجد القبة. جامع القنيطرة.	المدرسة اليوسفيّة والشّماعيّة مدرسة القائد مراد الأصفر مدرسة التّرية مدرسة أبي عبد الله محمد المغربيّ المدرسة المنتصريّة المدرسة الحسينيّة الكبرى.	زاوية سيدي أحمد بن عروس زاوية أبي الظّفر سيدي منصور بن جردان.

فالمأسسة شملت أصنافا كثيرة من العلماء ومنهم الإمام والشيخ والمدرّس<sup>2</sup>. ونقرأ عبارات كثيرة تفيد التّعيين والعزل والتقلّب في الوظائف، فمنها حول الشيخ المهتار "تصدّر للتّدريس بالمدرسة اليوسفيّة مدّة ثمّ عُزل عنها وتولّى الإمامة والخطابة بجامع محمد باشا بعد الشيخ مصطفى بن عبد الكريم. ثمّ عزل عن الخطابة وتولّى خطابة جامع القصر وتصدّر التّدريس بالجامع الأعظم جامع الزيتونة"<sup>3</sup>.

وللباي الصّلاحيّات لتخيّر المشائخ العلماء كما تومئ النّعوت التّقرّظيّة المرتبطة بهم من قبيل "وقد انتخب لها الأمير - أسعده الله- مدرّسا حقّق بميزان تحريره علوما، وصقل بنافع تبيينه فُهما، أشرق بأنوار ابتكاراته في أفق التّعليم نجوما، وأبدع من غريب عباراته وعجيب براعته ما صير به كلّ جهبذ عند تقدّمه لمحراب حوز قصب السّبق مأموما، من صار به المثل سائرا في الثّقلين، وعلما عند الفريقين، وما سئلوا عمّن هو من أنهار المعارف وعيون العوارف راوي، إلاّ أجابوا ذلك أبو عبد الله محمد الخضراوي. فرتبّه الأمير أدامه الله- ليجريّ لهم من سلسال علومه أنهارا، ومن سماء فوائده مدرارا، ويروي الحديث بها الأشهر الثلاثة العظام فعلا مؤيّدا على الدّوام"<sup>4</sup>. أو ما ورد في معرض الإشادة بفضائل الملك حسين في إحياء ليالي رمضان المعظّم "عدا ما ربّب -أسعده الله- في كلّ ليلة من الليالي الفضيلة من بذل إحسان عميم لعلماء مخصوصة بإحيائها من كلام الله -عزّ وجلّ- وسرد كتب وعظ وما يختصّ بفضل تلك اللّيلة التي يجتمعون بسببها. وإنشاد شعر بحسب ما يقتضيه المقام، ويجمل به ذلك الالتئام. وكان المعين لتلك الليالي والمنتظم في سلكها من اللّالي، الشيخ العلامة أبو عبد الله محمد زيتونة وتأتي ترجمته، إن شاء الله، والشيخ محمد الحرقافي والشيخ أحمد الطّرودي خطيبه، وقد مرّ التّعريف بهما"<sup>5</sup>.

كما نقرأ في ترجمة محمد بن محمد الصغير بن محمد ابن محمد بن أبي القاسم بن جمال الدين الزّوابي القيروانيّ أنّ حسين بن عليّ أولاه بعد شيخه. "وكانت تولية الأمير إياه من باب وضع الدّواء موضع الدّاء. لأنّه دام عزّه لم يكن له اعتناء

<sup>1</sup> - حول هذه المدارس وتاريخها ومؤسّسها وموقعها وأحبّاسها والكتب المقرّوة بها راجع: بن مامي (محمد الباجي)، مدارس مدينة تونس من العهد الحفصيّ إلى العهد الحسينيّ القرن السّابع إلى القرن الثّالث عشر هجريّ، المعهد الوطني للتراث، تونس، 2006.

<sup>2</sup> - حول أصناف العلماء ينظر على سبيل الذّكر لا الحصر: قرين (أرنولد هـ)، العلماء التّونسيّون 1873-1915، ترجمة حفناوي عمّاريّة وأسماء معلى، دار سحنون للنشر والتّوزيع، تونس، والمجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة، قرطاج، تونس، ط1، 1995.

<sup>3</sup> - الحلل...، ج 3، ص 158.

<sup>4</sup> - م، س...، ج 3، ص 169-168.

<sup>5</sup> - م، س...، ج 3، ص 170.

بأعظم من تفقد الدروس والمدارس، فكم أحياء من مدارس ودوارس، وكم أحياء من دروس، بعد الاضمحلال والدروس، بحيث إن الجامع الأعظم جامع الزيتونة غاية ما بلغ فيه قبل من عدد المدرسين من الشروق إلى الغروب نحو ثمانية بين مبتدئين ومنتهين فقط. والحمد لله، إنه اليوم به نيف وأربعون مدرساً عاداً ما لبعض المدرسين من مجالس مكررة في كل يوم وما تجد مدرساً من هؤلاء خليلاً من نعمة ومرتب أوصله إليه من مال الجزية، يصرف ذلك على يد جامعهم - عفا الله عنه - فمنهم من كان ذا وظيف سابق قواه وضاعفه، ومنه من ابتكر إيجاده وعين له جريات حتى صقل بذلك أذهان الطلبة، وأبلغ كلاً - لوجه الله - ما طلبه، وامتنى بذلك كل تلميذ جياذ الاجتهاد، وأمل كل موقف لحوز قصب السبق من أيام المهاد، ورأى أرباب الحجا أن العلم كثر ما له من نفاذ، وأن انتشاره على يد هذا الأمير الموقف من لوازم السداد، ونوافح الرشاد، لأنه لكل خير هاد وقد شاهدنا من كان يتدحرج بين بطون الأودية وذبول الوهاد، رقى بعروة اتباع العلم قنن الأطواد، فأصبح أرح العلم الشريف بنفحات نوال هذا الأمير المؤيد في ازدياد، ومنهم العالم الفاضل المتفتن العابد الزاهد الفقيه الورع الشيخ أبو إسحاق إبراهيم الشريف. ارتحل من المغرب وأقام بتونس وعين له الأمير - أسعده الله - جارية تقوم به فأقرأ المختصر الخليلي بالجامع الأعظم جامع الزيتونة<sup>1</sup>. فالخطاب يتموقع في صف السلطنة مغدقا عليها آيات الثناء وأبيات المديح للربط بين صورة الحاكم وصورة إحياء العلم والدين وهما ثنائيتان متلازمتان في تصور الملك. فتنوعت الأساليب بين الإنشاء والمجاز وفنون البديع لقدرتها على شد انتباه المتلقي وإقناعه.

ويرتبط التعيين بالفضائل ونيل الثواب وإحياء السنن مما تدعمه النقول مثل الحديث النبوي "حتى عم البلاد وجعل الله في تعاطبه رزقا للعباد. ولا شك أن "من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة" خلد الله الملك فيه وفي السعيد عقبه وأدر عليهم أنعامه"<sup>2</sup>. وقد يكون التعيين في خطط مختلفة فيعزل الشيخ ثم يعين من جديد دون أن ندرك السبب "الشيخ الفاضل أبو محمد حمودة الرصاع. تولى مرتبة القضاء بأيام أميرنا - دام علاه - وعزله بعد مدة طويلة وألزمه لرواية البخاري يرويه بين يديه بمسجد باردو مبيته هنالك. ويدرس بجامع الزيتونة بباب الشفاء، وتولى المدرسة الحسينية الكبرى"<sup>3</sup>. ويفرض التعيين وفق أوامر عليّة تخضع المؤسسات ومنها جامع الزيتونة لرقابة الدولة وتنظيمها وخياراتها. وإذا كانت أغلب التراجم التي نطالعها لشيخوخة من السادات المالكية فإن تعيين عدد من الشيوخ الحنفية ينبئ عن مشروع متكامل يروم تركيز المذهب الرسي للبايات في أعرق المؤسسات الدينية بالبلاد. إن عدد الشيوخ الحنفية المعينين لا يتجاوز عدد أصابع اليدين. لكنّه مؤشّر مهم على تدخل صاحب المخزن ومن جهة أخرى يساعدنا على تلمس تحولات طرأت على برنامج التعليم الديني بعد أن كان مالكيًا خالصًا. فمما ورد في ترجمة الشيخ محمد شلي الحنفي "ومنهم الشيخ الفاضل المدرس الناصح المخلص المتواضع المعترف الهاضم نفسه بين أقرانه، الراجع في زوايا الخمول طول زمانه، المتفتن في عزيز العلوم والأمين على ما استفاده ونقل، الثابت في مزلق التقرار البطل، كاد من شدة خموله أن يعد من مستكن الضمائر، وسار في تلك المثابة كالمثل السائر، الشيخ

<sup>1</sup> - م، س، ... ج 3، ص 352.

<sup>2</sup> - م، س، ... ج 3، صص 132-133.

<sup>3</sup> - م، س، ... ج 3، ص 288-289.

أبو عبد الله محمد شلبي الحنفيّ. وظّفه أمير الدّولة -أعزّه الله- وعيّن له مددا يجري عليه فنفع الطلبة بلطيف تفراره، وأحيا قلوبهم بدوام قراره، وأظهر لهم من كنز المذهب ذخائر أسراره. أخذ الفقه عن الشيخ أبي العباس أحمد برناز وكذلك الأصول. حضرت له في قراءته المنار. وقرأ على الشيخ سيدي محمد الخضراويّ، وعلى الشيخ أبي عبد الله محمد الغماري وعلى الشيخ سيدي محمد الكفيف الحنفي، وعلى الشيخ أحمد الطّرودي. وأخذ التّجويد والتّحو على الشيخ محمد التّونسي وأخذ عن الشيخ أبي العباس أحمد التّونسي. وكان جلس أوّل الحال يقرئ لا لجزء حتّى تفضّل الربّ الكريم عليه بمدد على يد أمير الحضرة -أسعده الله-<sup>1</sup>. وبذلك تراوح موقع الشّيوخ المدرّسين بين التّطوّع ثمّ نيل الجراية من صاحب المخزن.

فهل نتيّبن من خلال تلك التّراجم برنامج التّعليم وكتبه وخصائمه؟

ثانيا: تراجم المدرّسين وبرنامج التّعليم:

#### 1- الكتب المقرّرة في التّعليم بين الثّابت والمتحوّل:

لن نجد في النّصوص المصدرية ذاك التّنصيص الواضح على برامج التّعليم الدّينيّ المرتبطة بتنظيمات حسين باي. بيد أنّ نجله محمد الرّشيد باي تنسب إليه قصيدة "محركات السّواكن" شرحها محمد الشّافعي بن القاضي وهي "إظهار النّكات من خبايا المحركات" ظهرت مدّة حسين بن علي<sup>2</sup>. وفيها جريدة بأسماء العلماء والكتب نُوردها لأهميتها. وهم الشّيخ محمد الغمّاد (الأجروميّة، المغني) والشّيخ أبو القاسم الجبالي (القطر، الشّدور، مقدّمة ابن هشام، زكرياء على ايساغوجي، القلصادي في الحساب) وحمّودة الرّصاع (المكودي على الألفيّة، مختصر السّعد، صغرى الصّغرى) وعلي سويسي (السّعد المحلي، القطب على الشّمسية، الكبرى) ومحمد الخضراوي (الكبرى، ابن أمّ قاسم على الألفيّة) ومحمد الصّقّار (الأشموني على الألفيّة، رسالة عصام في الاستعارات) والشّيخ محمد زيتونة (الكبرى، الرّحبية، الموطأ، الأشموني، البخاري، التّصريح، مسلم، الدّماميني على التّسهيل، الجامع الصّغير، القطب، مختصر خليل، الخبيصي، رسالة ابن أبي زيد، مختصر السّعد، المطول، السنوسي على مختصر ابن عرفة) وأبو القاسم ابن غانم العبّاسي (مختصر السّعد، العضد على ابن الحاجب). ويلاحظ طغيان الكتب المتواترة في تقاليد بلاد المغرب باستثناء مختصر السّعد التّفتراني وهو من الكتب الحنفيّة.

نقل ابن أبي دينار في نصّ أسبق تاريخيا تصنيفا لعلوم العربيّة من مصنّف القاضي زكريا "اللؤلؤ النّظيم في روم التّعلّم والتّعليم" وعن صاحب الاقتراح في أحوال التّحو والكمال ابن الأنباري في كتابه "نزهة الألباء في طبقات الأدباء" فيقول: "علوم

<sup>1</sup>- م، س، ...، ج، 3، ص 354.

<sup>2</sup>- ابن عاشور (محمد الطّاهر)، أليس الصّبح بقريب: التّعليم العربيّ الإسلاميّ دراسة تاريخية وآراء إصلاحية، دار سحنون للنّشر والتّوزيع، تونس- دار السلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والترجمة، القاهرة، ط1، 1427 هـ/2006 م، ص 81. ذكر في النّصّ سنة 1118 هـ الموافق لـ 1706 م. ذكر أنّها ظهرت مدّة حسين بن عليّ سنة 1118 هـ/1706 م وهو أمر غير ممكن لأنّ محمد الرّشيد باي لم يولد بعد. في حين اكتفى الشّيخ محمد الشّاذلي التّيفر بذكر سنة وفاة الأمير 1172 هـ/1759 م. راجع: التّيفر (محمد الشّاذلي)، أدباء سالفون القرن الثّاني عشر للهجرة، إعداد وتقديم الطّاهر التّيفر، دار الغرب الإسلاميّ، تونس، ط1، 2008، ص 28.

الأدب ثمانية: اللّغة والتّحو والتّصريف والعروض والقوافي وصنعة الشّعر وأخبار العرب وأنسابهم<sup>1</sup>. أي أنّ التّصنيف من المنقولات، ولذا لا يمكن الحديث عن علوم العربيّة دون الحديث عن تمثّل اللّغة وعلومها وإبداعها، ففي النحو ظلّت أرجوزة "ألفيّة ابن مالك" مركزيّة لتعليم القواعد التّحويّة<sup>2</sup>. و"شرح شذور الذهب" لابن هشام الذي وضعت هوامش وحواشٍ على شواهد مثل الشّيخ خالد العيسى<sup>3</sup>. فمن ذلك ما ورد في ترجمة الشّيخ محمد الغماري "وكانت له ملكة بالألفيّة وكتب ابن هشام كلّها. كان يدرّس بالجامع الأعظم جامع الزّيّتونة ومن شغفه بفنّ التّحو صنّف فيه كتابا ضبط فيه الحدود وزاد لشوارد مطلقاته بعض القيود"<sup>4</sup>. ونسجّل ولعا بمقامات الحريري، وهو تقليد من العهد الحفصيّ في "ابن عرفة كان يقرأ الفقه بجامع الزّيّتونة، فإذا دخل المقصورة أقرأ مقامات الحريري"<sup>5</sup>. ومناسبة لما أوردناه تكثّر مخطوطات مقامات الحريري وشروحها في الرّصيد الوطنيّ بتونس عامّة.

فكيف وردت الكتب والعلوم في تراجم الشّيوخ؟ وهل أبانت عن موقعها وطرق تدريسها؟

## 2- الكتب والعلوم في تراجم الشّيوخ:

تعدّ "ألفيّة العراقي" و"الدرّة" للإمام الجزري أكثر المؤلّفات تداولاً في تدريس علم القراءات، فقد "قرأت عليه أنا الفقير رحمه الله شيخ الإسلام القاضي زكريا على ألفيّة العراقي في مصطلح الحديث قراءة بحث وتحقيق"<sup>6</sup>. ويعدّ علم الحديث والسيرة من العلوم الأساسيّة ومن الكتب المركزيّة "صحيح البخاري" وقد تفاوت الشّيوخ في تدريسه رواية ودراية، مع تقاليد في ختمه. ومن فروع علم الحديث مصطلحاته ويدرس في الجامع أو الزّوايا. ومنها ما ورد في ترجمة الشّيخ سعيد المحجوز "كان يتعاطى الحديث ومصطلحه ضحى جوفّي الختمة بجامع الزّيّتونة ويروي الحديث أيضا بزواية الأستاذ، ومن بجاهه لاند به أعظم الملاذ، صاحب البراهين والبركات وخوارق العادات أبي الظّفّر سيدي منصور بن جردان"<sup>7</sup>. وفي ترجمة الشّيخ علي سويسي نطالع "وأخذ الشّفاء والبخاري عن الشّيخ قاسم الغماري، وتعاطى فنّ الحديث على الشّيخ سيدي محمد قويدم وعلى الشّيخ سيدي سعيد المحجوز، وأجازه كلّ وأثنى عليه"<sup>8</sup>.

<sup>1</sup>- الرعيبي القيروانيّ المعروف بابن أبي دينار (أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم)، رسالة في الأدب، تحقيق الهادي حمّودة الغزي، الأخلاء، تونس، 1997.

<sup>2</sup>- الشّهب، ص 217.

<sup>3</sup>- م، س، ...، ص 176.

<sup>4</sup>- الحلل، ...، ج 3، ص 130.

<sup>5</sup>- الشّهب، ...، ص 472.

<sup>6</sup>- م، س، ...، ص 142.

<sup>7</sup>- الحلل، ...، ج 3، صص 131-132.

<sup>8</sup>- م، س، ...، ج 3، ص 350.

وإذا كان مختصر خليل المصري من الكتب المقررة عند المالكية ومثله رسالة ابن أبي زيد، فقد فرضت الطائفة الحنفيّة كتبها ومنها مختصر القدوري الذي شرحه الإمام يوسف برتقيز الرّغواني<sup>1</sup> بطلب من حسين بن علي<sup>2</sup>. إنّ الغاية من تعليم الفقه هي غاية تُفارق الواقع التاريخي إلى غايات أُخرى "يكون بها الفوز والنّجاة من التّوبيخ والملامات بين أيدي عالم الخفّيات"<sup>3</sup>. إذ تعلّقت الثّقافة بالمختصرات والحواشي والمتون والأراجيز. وبات النّاس على تقديس الكتب منكبّين، لا فرق في ذلك بين مالكيّ يقرأ "مختصر خليل"، أو حنفيّ يدرس "مختصر القدوري". ولكلّ طائفة كرامات ترونها تتصلّ بالكتابين. وبذلك تنتقل المعرفة عبر قناتين متلازمتين متعاضدتين إحداهما إلى الأخرى: حلقات الدّرس والعلم، والأسطورة التي تخلقها وترونها الأجيال. هذه الوضعية الدّهنية والتّعليمية لا تخصّ أهل تونس وحدهم، إذ قديم أحد علماء خوارزم إلى تونس "وأخبرنا أنّ قبر سعد الدين التّفتراني ببلادهم ظاهر يزار"<sup>4</sup>. فجندل الجماعة لما عرفوه، وعمّت فرحتهم حين أكّد لهم أنّ كتب الفقه المعتمدة في خوارزم هي: الكنز والوقاية والمختار والهداية<sup>5</sup> وهي كتب أساسية في تونس، فضلا عن الدّرس وشرح منار الأنوار لابن فرشته، وكلّها في المذهب الحنفيّ دون أن تزيح المذهب المالكيّ في تونس.

وباتت النّصوص المتصلة بعلم الكلام المنسوبة إلى السنوسي الأشهر. فهي تدرّس على يدي الشّيخ محمد الغماري "يخبر كتب السنوسي -رحمه الله- وانتخب منها قطعة لطيفة نافعة للمبتدئين. ويُقرئ مبادئ المنطق ورسالة ابن أبي زيد القيرواني"<sup>6</sup>. وكأنتا حيال محاولات لتقديم مادّة للمبتدئين لا نعرف محتواها غير وصفها "لطيفة نافعة".

ووصلتنا مصنّفات في علم الكلام، منها رسائل قصيرة وهي "العقيدة التّوريّة في اعتقاد الأئمة الأشعرية" لعلي النوري وشروح طلبته عليها، و"غنيّة الرّاغب ومُنيّة الطّالِب" لأبي عبد الله محمّد التّواتي، يعلن فيه صاحبه عن رغبته في جمع العقائد في كتاب جامع مختصر، والمخطوطان باتا معتمدين في الدّروس. ويميّز التّواتي بين علم الكلام والمنطق: "... وقال المحقّق العضد سُبي بذلك الاسم لأنّ المتكلمين جعلوه بإزاء المنطق نافعا لهم في علومهم، ولنا أيضا علما نافعا في علومنا سمّيناه بالكلام على سبيل

<sup>1</sup> - برتقيز (يوسف)، المنن على مختصر القدوري أبي الحسن، مخط. د.ك. و بتونس 14725- 14726- 14727- 14728- ورقم 16652 و 5161.

<sup>2</sup> - بن يوسف (الصغير)، المشرع الملكي في سلطنة أولاد عليّ تركي، تقديم وتحقيق د. أحمد الطّولبي، المطبعة العصرية، تونس، ط1، 1998، ج1، ص 297- 298.

<sup>3</sup> - الغماري (محمد)، شرح مرشدة الغلمان، مخط. د.ك. و بتونس 2581، و 30 ب.

<sup>4</sup> - الشّهب....، ص 396.

<sup>5</sup> - م، س....، ص 396.

كتر الدقائق في فروع الحنفيّة لأبي البركات عبد الله بن أحمد المعروف بحافظ الدين النّسفي ت 710هـ / 1310-11م.

وقاية الرواية في مسائل الهداية للإمام برهان الشّريعة محمود بن صدر الشّريعة عبيد الله المحبوبي الحنفيّ.

المختار في فروع الحنفيّة لأبي الفضل مجد الدّين عبد الله بن محمود بن مودود الموصلي الحنفيّ ت 683هـ / 1284-85م.

الهداية لشيخ الإسلام برهان الدين علي بن أبي بكر المرغيناني الحنفيّ ت 593هـ / 1196م. حول هذا الكتاب وشروحه راجع: مصطفى بن عبد الله الشّهب بجاجي خليفة، كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، (د.ت)، 2 / 2031.

<sup>6</sup> - الحلل....، ج 3، ص 130.

المقابلة. إلا أنّ بيننا فرقا لطيفا وهو أنّ نفع المنطق في علومهم بطريق الآلة والخدمة لغيره، ومرة يسّى خادم العلوم وألّتها وربّما سّى رئيسها من حيث إنّ أحكامه نافذة فيها<sup>1</sup>.

أمّا "علم المنطق" فقد ذمّ واستنقص أهله خاصة أنّ أصله من الفلسفة عدوة الشريعة لا ربيبتها. فقد استنفر برناز من الحجج القوليّة المتنوعة، فتاوى وأشعار وحوادث (...) تجمع على التّحريم والمنع خوفا على العقول ونقاوة العقيدة. إنّ إشارة بسيطة وردت في كتاب "الشّهب" تعلن خطأ المدّعي في قراءة لفظ المنطق بفتح الطاء، وهو إلى ذلك يرى نفسه عالم المدينة في هذا الفنّ. الخطأ في نُطق الاسم لا ننتظر معرفة بدقائق العلم المتشعبة. والأغرب أنّ دراسة الكتب الأمهات في المنطق تصبح مذمة: "وإذا أمكن أن يتعاطى هذا الرجل شيئا من العلم، ومكّن من ذلك على أدنى هيئة، فمتن ايساغوجي في المنطق، والفلسادي في الحساب، والجغميني في الهيئة"<sup>2</sup>. فالكتب المعتمدة في التّدرّس تعوّض الأصل بالفرع وتحلّ الأرجوزة السهلة والرسالة المملّخة موضع كتب أرسطو وشراحه العرب. ولم يكن للمنطق حظّ كبير في حلقات العلم خارج حاضرة تونس، ورد في ترجمة الشّيخ أبي إسحاق إبراهيم المزغنيّ "ذهب إلى تونس وتوغّل فيها في علوم المعقول، وهو أول من أكثر الاشتغال بالمنطق في صفاقس ولم يكن للنّاس به قوّة اعتناء ولا يأخذون منه إلا ما تقام به التعاريف والأدلة كإيساغوجي والسلم"<sup>3</sup>. إنّ تدرّس الفلسفة فتح للعقل وتفتيح لمواهب المتعلّم الذي يمرّن ذهنه على المسألة والنقاش وطرح الأسئلة. فتعدّه إعدادا ناميا متطوّرا لينصهر في الحياة الاجتماعيّة، تكيف المادّة التربويّة الصّبي لفهم محيطه وحياته. ولكن في نفس الوقت تعتبر الفلسفة في نظر أهل التّربية مفسدة لمحاسن الشّرع. رغم بعض فضائلها فيما يخصّ التحرّز من الآراء الماقيليّة، وتبعد الحواجز، وتحرّز رؤيته، وتخلق جدلا بين الإنسان ونفسه، وتدفعه إلى فهم كلّ الظواهر السياسيّة منها والأدبيّة والاجتماعيّة<sup>4</sup>.

ألا يمكن أن يمثّل جماع هذا الموقف من علم المنطق سببا يفسّر عزوف النّخبة التّونسيّة المحافظة عن تدرّسه وتطويره، ليصوغوا مواقف سلبية إقصائيّة حول تعليمه فرفضوا كتاب بيرم الرابع. وذلك خلافا لما ذهب إليه دعاة التّحرير والتّنوير في بدايات القرن العشرين وخاصة الشّيخ محمّد النّخلي<sup>5</sup> رغم أنّ الكتب المعتمدة في التّدرّس تندرج في نسق الثّقافة التّقليديّة. وإذا كنّا قد لاحظنا ندرة الإشارات حول علم المنطق فإنّ التّطرق إلى علم الحساب وفروعه في حركة العلم والتّعليم نادرة. فتراجم الأعلام لا تلمع إلى تدرّس علوم الحساب والرياضيات وما يتفرّع عنهما، إلا فيما ندر. وقد ذكرت الرياضيات ذيل ترجمة محمد الخضراوي "وأخذ العلوم الرياضيّة عن شيخه أبي الثّناء محمود مهتار"<sup>6</sup>. في حين أسهب الوزير السراج في بسط ما نال

<sup>1</sup> - التّواتي (محمد)، غنية الطّالب ومنية الرّاعب، مخطوط دك و بتونس، 3190، ورقة 3 وجه. (كذا في الأصل)

<sup>2</sup> - الشّهب...، ص 395.

<sup>3</sup> - مقديش (محمود)، نزهة الأنظار في عجائب التّواريخ والأخبار، تحقيق علي الزّوّاري ومحمّد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ج2، ص 374.

<sup>4</sup> - Jean Moreau, la Pédagogie, Grancher, Paris, 1991, P142.

<sup>5</sup> - ينظر في هذا الصّدّد ما ذكره: القاسمي (فتحي)، الجدل الدّيني في تونس (1875-1931) قراءة تحليليّة نقدية، أطروحة دكتورا الدّولة، كلية الآداب والفنون والإنسانيّات، منوبة، 2005-2006، ص 247.

<sup>6</sup> - الحلل...، ج 3، ص 142-143.

من معارف وفنون. ونلفي الشيخ أبا القاسم المؤخر يدرّس الحساب والفرائض والفلك وهو القادم من صفاقس للتدريس بالمدرسة الكيلانية بسوسة "وأقام المدرّس بها الشيخ العالم الأجل المتفّن في العلوم الرياضيّة إمام زمانه ووقته في علم الميقات الشيخ أبا القاسم المؤخر وله في الرّبع المجيب رسالة عظيمة أتى فيها بما لم يسبقه غيره، وله الخبرة التامة بتسطير البسائط الوقتيّة، وله في فنّ الحساب والفرائض اليد الطّولى. وسطر الرّبع المجيب والمقنطر بألطف صنع. وأخذ عنه من هذه الفنون جمّ غفير من أعيان الطّلبة فكان يشار إليه في فنّه بزمنه ولم يزل كذلك إلى الآن ختم الله لنا وله بالمغفرة"<sup>1</sup>.

أثبتت البحوث في مجال البيداغوجيا أنّ مدرّس الرياضيات يمكن أن يكون مدرّسا ممتازا للثقافة، فهو يشكّل الروح وينمي الشكّ مع كلّ نظريّة. وعلى الإنسان أن يهندس حياته، وبعبارة أوضح عليه أن يزن الناس حقّ وزنهم، ويقيس الأمور ليحسن بيئته.<sup>2</sup> إنّ الرياضيات علم يطور الملكات، فماذا يحصل إن عطّلنا نموّها؟ لقد تفتّن الشيخ محمّد بيرم الخامس إلى الخلل الحادث من إقصاء العلوم العقلية ناقدا للتعليم بالمدارس والأزهر مبينا أنّ هذه المعارف "بها يتفتّق الدّهن"<sup>3</sup>. وقد أشار إلى واقع التّعليم "ولا ينسب إلينا إبدال تعليم العلوم الرياضيّة والطّبيعيّة بهاته الفنون الأساسيّة لكلّ مسلم. كلاً بل نودّ عدم الإعراض عن العلوم الإسلاميّة مع بثّ الفنون العقلية بين الرعيّة. وليتها عمّت المدارس والجوامع المقتصر الآن فيها على النّحو والفقّه والمعاني"<sup>4</sup>.

### 3- تراجم الشيوخ المدرّسين وحلقات الدّروس:

نلاحظ في عدد لا يستهان به من تراجم الشيوخ الإسهاب في تضلّعهم المعرفي، فتكثر المعطوفات لبيان قدراتهم وامتلاكهم ناصية العلوم أو كتبها. ومنها ما نطالعه في ترجمة الشيخ سيدي عبد القادر الجبالي ابن زيد بن خالد العيسي. أصله ومولده من جبال مطماطة وسبب رحلته إلى تونس أنّه رأى النبي ﷺ في منامنه، فحفظ بها القرآن العظيم وحصل العلوم العقلية والنقلية "وبرع في الفقه والنّحو والمنطق والأصليين والمعاني والبيان والعروض وفنّ الحديث الشّريف، وأجازوه وأثنوا عليه. وتصدّر للتدريس في أماكن متعدّدة منها مدرسة أبي عبد الله محمد المغربي، ثمّ درّس بجوامع الزيتونة"<sup>5</sup>. وتظهر في ترجمة الشيخ محمد الوافي النّعوت التّقرّيبية "ومتهم العالم العلامة والجهد الفهامة الفاضل المدرّس المتفّن العدل الذي ما عدل عن وثيق التوثيق والإمام الذي تقدّم لمحارِب التحقيق والخطيب ... والفقيه ... والنّحويّ ... والصّبريّ ... والتّوحيديّ ... والمنطقيّ ... والأصوليّ ... والبيانيّ ... والفرضيّ ... الشيخ أبو عبد الله محمد الوافي"<sup>6</sup>. فهل أنّ كثرة النّعوت المرتبطة بالعلوم تدلّ على موسوعيّة مطلوبة ومقاييس نموذجيّة للشيخ المدرّس ليسدّها ثغرات واحتياجات؟ إننا لا نجد تنظيما واضحا لحلقات الدّروس وما يختصّ به كلّ

<sup>1</sup>- الحلل، ج 3، ص 229.

<sup>2</sup>-J.Moreau, La pédagogie, P153.

<sup>3</sup>-فتحي القاسمي، "رسالة نادرة للشيخ محمّد بيرم الخامس: الكشف الأبهري في الموازنة بين تعليم المدارس والأزهر"، المجلة التاريخيّة المغربيّة، س 19، ع 65-66، أوت 1992، صص 257-262.

<sup>4</sup>- م، س، ص 259.

<sup>5</sup>- الحلل، ج 3، ص 153.

<sup>6</sup>- م، س، ص 351-350.

شيخ من علم أو كتاب أو مقرر، وهو ما انعكس على التراجم فأحياناً يكتبون شيخاً بتدريس كتاب أو كتابين، وأحياناً أخرى يدرّس عدداً من الكتب.

إنّ الموسوعيّة والتفنّن والمعرفة بالكتب مجلبة للشهرة وتجعل صاحبها متنعمًا في جنّة التّعيم من ذلك ما ذكر في ترجمة الشيخ سعيد بن سعيد الشّريف "... وكان له بالجامع الأعظم جامع الزيتونة مجلسان حضر في أولهما فحول الفنون المحلي والكبرى والسّعد والقطب وألفيّة المصطلح الخمس في مجلس واحد، وفي الآخر المختصر الخليبي، وكان معتنياً بها أشدّ اعتناءً، لا يترك المسألة حتّى يستخرج ما انطوى من المدّخرات في خلالها ويبين حقائق ذاتها وخيالها."<sup>1</sup> وهو شأن الشيخ أحمد التّونسيّ الذي ورث عن والده محمد العلم "أخذ القراءات السّبع عن والده غير أنّه فاقه، وأنفق عمره في مرضاته وما عاقه ... وأخذ البيان والمنطق عن خاتمة المحقّقين شيخنا سيدي محمد الخضراوي. وأخذ المختصر الخليبيّ عن الشيخ أبي عبد الله محمد الصّفّار. وأخذ النّحو عن الشيخ أبي عبد الله محمد الغماري. وأخذ الحديث عن الشيخ سعيد المحجوز. وأخذ علم الطّريقة عن حاملها عن كاهله سيدي محمد العياشي -نفعنا الله به- ... أقرأ المغني لابن هشام والكبرى والسّعد البياني والقطب والمختصر الخليبي والسّنوسي والشّاطبيّة فما دون ذلك"<sup>2</sup>.

وقد أسهبت المصادر في نعت الشّيخ وبيان قدراتهم الموروثة منها والمكتسبة "المولى الذي فاز بالمجدين المكتسب والموروث مفق الحضرّة التّونسيّة الشّيخ عبد الكبير درغووث ابن الشّيخ المفتي يوسف درغووث ..."<sup>3</sup>، ومثله كانت ترجمة "الشيخ المتفنّن سيدي صالح ابن الأستاذ شيخ مشائخ الحضرة التّونسيّة سيدي سعيد الشّريف رحمه الله تعالى. كان تولّى وظائف والده، رحمه الله تعالى، إمامة وتدرّيساً. وكان له صولة طائلة على جميع المدرّسين حسبما نشأ عليها في حياة والده. إذ لا يعلم أحد من علماء عصره إلّا ولوالده عليه يد علميّة. كان يقرأ المختصر الخليبيّ ويتعاطى كتب النّحو والتّوحيد والبيان والمنطق والأصول. وغالب علومه أخذها عن والده، وله مشاركة في الفنون، يحفظ نوادر من الأدب. طويل القدّ جسم القامة جهوريّ الصّوت له حسن ملاقة"<sup>4</sup>. وهو ما يندرج في تراجم العائلات العلميّة. وأخرى تتّصل بمن تمرّس باللّغة العربيّة "ومنهم الشيخ الفقيه المدرّس أبو القاسم السّاحليّ البصير بقلبه يخبر العربيّة ويقلب خبيّات معانيها، ويظهر مضمرات مبانها. ويتعاطى المختصر الخليبيّ والبيان والأصول."<sup>5</sup>

ومن الشّيوخ من جمع العلوم الشّريفة والتّقوى وهو شأن الشيخ أحمد عزّوز "تزايد بتونس وأخذ عن أفاضل وتمهّر في علم التّجويد فكان يقرأ للعشر. أخذ عن الشيخ عبد الرّحمان العصائبي، وله سند في الحديث الشّريف. تعاطى التّأديب الشّريف

1 - الشّهب، ص 150-151.

2 - الحلال، ج 3، ص 274-275.

3 - م، س، ...، ج 3، ص 292.

4 - م، س، ...، ج 3، ص 284.

5 - م، س، ...، ج 3، ص 353.

سنين فنجب عنه الكثير. وكان عدلا إماما خطيبا بجامع الحلق، خارج باب الجديد. وكان صاحب السجادة بجامع الزيتونة. كان محافظا على حدود الله تعالى. تولى الإمامة بمسجد القبة<sup>1</sup>.

وفي ترجمة الشيخ العدل أبي الحسن الرضاع مزج صاحب القلم في تعداد مزاياه بين أسلوب إنشائي وتقريرى "كم جال في ميدان التفسير وأفحم في عريض ذلك الميدان كلّ تحرير ولا عيب فيه إلا أنه المفرد وأجلّ الجمّ الغفير. كان قدوة في الأصول والعربية والفقهاء وخصوصا تدقيق النوازل تعاطى الفتيا زمانا. ثمّ لما تولى خطابة جامع الزيتونة وإمامته تخلى عن الفتيا لاشتغاله بوظيفة التدريس والنظر والإمامة، ولما تعاطى التفسير أبدى فيه عجائب ممّا لا يخطر على القلوب"<sup>2</sup>.

كما نلاحظ جمع الشيخ بين الفقه والتصوّف وهي ملاحظة تندرج على فترة قبلية. ومنها ترجمة إبراهيم الشريف، ومع ذلك كان يدرّس مختصر خليل فحسب "ومنهم العالم الفاضل المتفتّن العابد الزاهد الفقيه الورع الشيخ أبو إسحاق إبراهيم الشريف. ارتحل من المغرب وأقام بتونس وعين له الأمير -أسعده الله- جراية تقوم به فأقرأ المختصر الخليلي بالجامع الأعظم جامع الزيتونة"<sup>3</sup>.

ونقرأ في ترجمة أحمد الطرودي الحنفي ما تلقاه على مشائخه واختصاص كلّ منهم بعلم فيذكر مرّة المعارف أو أخرى كتبها "الشيخ أبو العباس أحمد الطرودي ابن مصطفى. أخذ عن الشيخ البركة حافظ المذهب الحنفي سيدي محمد الكفيف الفقه والفرائض. وأخذ العربية والتوحيد عن الشيخ أبي عبد الله محمد الغماري وعدة فنون عن الشيخ أبي عبد الله محمد زيتونة. وأخذ رواية السبع عن الشيخ أبي العباس أحمد عزّوز بطريق الشاطبية... وأخذ مصطلح الحديث عن الشيخ أبي عبد الله محمد الصّفار. وأخذ الصحيحين رواية ودراية عن الشيخ سيدي سعيد المحجوز وأجازه"<sup>4</sup>. ومثلها في ترجمة الشيخ عبد الكبير الصوّفي الذي ورث عن والده فـ "تضلع من ثدي علوم والده، وارتشف بين يديه من أعذب موارد. وكان والده -رحمه الله- تولى الفتيا الحنافية من لدن محمد باي. ومثل ما كان ابنه أخذ عنه، أخذ عن عدّة أعلام أيضا كالشيخ سيدي سعيد الشريف -ومرّت ترجمته في الجزء الثاني- وأخذ عنه البيان والأصول والمنطق وكبرى السنوسي. وأخذ فنّ الحديث الشريف عن سيدي سعيد المحجوز. وأخذ عن سيدي عبد القادر الجبالي عدّة علوم. وأخذ عن الشيخ قاسم الغماري فنّ التوحيد، وعن الشيخ أبي عبد الله محمد الغالي فنّ العروض، وعن الشيخ أحمد مجاهد وعن هبة الله الصّرف واللّغتين الفارسيّة والتركيّة، وعن الشيخ محمود المهتار الفقه الحنفي"<sup>5</sup>. وبالتالي نلاحظ تلك الإضافات في العهد العثماني وهي تدريس اللّغتين الفارسيّة والتركيّة نظرا لحاجة الدّواوين لها فضلا عن ظهور كتابات مترجمة من التركيّة إلى العربيّة.

<sup>1</sup>- م، س، ... ج 3، ص 282.

<sup>2</sup>- م، س، ... ج 3، ص 285.

<sup>3</sup>- م، س، ... ج 3، ص 352.

<sup>4</sup>- م، س، ... ج 3، ص 119.

<sup>5</sup>- م، س، ... ج 3، ص 94.

وفي ترجمة الشيخ محمد جعيط نتبين أنه "أخذ الحديث عن الشيخ سيدي أحمد الشريف وأخذ معظم الفنون عن الأستاذ القدوة سيدي سعيد الشريف فقها ونحوا وتوحيدا ومنطقا وأصولا وبيانا. وأخذ القراءات عن شيخنا سيدي إبراهيم الجمل. وأخذ عن سيدي سعيد المحجوز فن الحديث الشريف، وعن الشيخ علي العامري وعن الشيخ قاسم الغماري وعن الشيخ سيدي محمد قويدم".<sup>1</sup> مما يؤكد أن شيوخا اكتسبوا صفة الموسوعيّة ومنهم سعيد الشريف فهو قدوة في الفقه والنحو والتوحيد والمنطق والأصول والبيان، وآخرون اختصّوا بعلم شريف هو الحديث النبويّ فاستزاد صاحب الترجمة من أربعة أعلام تباعا. وهو مؤثّر على حرية طالب العلم في الجلوس إلى من شاء من الشيوخ في حلقاتهم.

وتتأكد عندنا هذه الفسحة التي منحت للطلبة والشيوخ في التدريس دون ارتباط بجدول مضبوط للمقررات في ترجمة محمد الخضراوي "ثمّ زاده الأمير - زاد الله في عمره - التدريس بمدرسته الحسينيّة الكبرى حسبما يأتي ذكرها - إن شاء الله تعالى - وزاده درسا بالجامع الأعظم جامع الزيتونة. أخذ عن أجلة أساتذة. فعلم القرآن عن شيخنا أبي إسحاق إبراهيم الجمل، كما أخذ عنه أيضا علم العروض والنحو والصرف.

وأخذ علم الحديث والتفسير ومعرفة الرجال عن شيخه أبي عبد الله محمد قويدم. والنحو عن شيخنا أبي عبد الله محمد قويدم. والنحو عن شيخنا أبي عبد الله محمد الغماري. وأخذ الفقه والمعاني والبيان وعلم الكلام والأصليين عن شيخنا سيدي سعيد الشريف وأخذ الفقه والنحو عن شيخه أبي عبد الله محمد فتاة، وعلم الأسرار عن شيخه سيدي أحمد أبي عبيدة ... وأخذ عن شيخه أبي عبد الله محمد بن فرج النحو وطرفا من فنّ السماع. وروى الكتب الستة عن شيخه سيدي سعيد المحجوز وأجازه في ذلك. وأخذ جانبا عظيما عن شيخه أبي الحسن علي الصوّفي الحنفيّ. وأخذ العلوم الرياضيّة عن شيخه أبي الثناء محمود مهتار".<sup>2</sup> وبما أنّ الشيخ محمود بن رجب المهتار قد ارتبط بالرياضيات فلا بأس من معرفة العلوم التي نالها وهي تجمع بين الشرعية والعقلية وعلوم اللسان العربيّ "أخذ الفقه الحنفيّ والصرف والمعاني والبيان والهندسة والمساحة والفرائض والحساب والأصليين عن الشيخ جعفر كرابصة الحنفيّ".<sup>3</sup>

وبذلك نتبين بجلاء أنّ تحصيل العلوم في حلقات الدروس امتاز بمرونة وعفوية في الالتحاق بالشيوخ والتحلّق حولهم تحت أعمدة الجوامع وغيرها من المؤسسات. فلا نجد ضوابط وتحديدا صارما للوقت وفق جدول زمنيّ خاصّة أنّ نظام الامتحان غائب مع الاكتفاء بالإجازات.

#### خاتمة:

تبيّننا من خلال تتبع المادة المصدرية أن مؤسس الدولة الحسينيّة حسين بن علي ركّز دعائم دولته بالالتفات إلى المؤسسات التعليمية. ولتحقيق غايات مأسسة الدينيّ والثقافيّ اتخذ وسائل الهيمنة المتوقّرة من تشييد المدارس وتنظيم قرارات تعيين

<sup>1</sup> - م، س، ...، ج 3، ص 137.

<sup>2</sup> - الحلل، ...، ج 3، ص 142-143.

<sup>3</sup> - م، س، ...، ج 3، ص 158.

العلماء وعزلهم وضعّ الأموال والأحباس لهذه المؤسسات من عقارات وكتب. وكانت غايته بسط نفوذه تحقيقاً لغايات الملك وإحداث توازنات بين المذهب المالكي الذي يمثل الأغلبية والمذهب الحنفي الذي يمثل مذهب السُلطة. وعلى ذلك التّرح سار خلفه حتّى وصلنا إلى إصلاحات المشير أحمد باشا باي.

إنّ العلوم المعتمدة في حلقات الدّروس دلّت على الذّهنيّة السّائدة الموروثة منذ العصر الوسيط وتجد أدقّ توصيف لها في مقدّمة ابن خلدون، تلك التي أرادت أن تحصر حدود العقل وتضيق من إمكانيّاته. فأنتجت فكراً إقصائيّاً لا يمارس العنف الرّمزيّ على الأفراد فحسب، إنّما يخضعهم لإكراهات معرفيّة في اختيار العلوم ومواضيعها وكتبها والمصادر التي باتت تكتسب في السّنن الثّقافيّة مكانة مقدّسة. ونرى أنّ سمات المجتمع التّقليدي قد غلبت على التّصوّرات. فهذه السّمات تعدّ من المواضيع الثّقافيّة والأوضاع الاجتماعيّة فخلقت سنناً يسير على منهاجها الأفراد، وهي التي تحدّد موقع الفئات الاجتماعيّة، لا يكاد يختلف الأمر في ذلك بين تونس والمغرب أو المشرق أو بلاد السّودان.<sup>1</sup> فلم تختلف هيكلية المؤسسات التّعليمية، وظلّت تنسج على منوال الخطط المرسومة. فإنّ لمسننا تجديداً خارجيّاً أفيئناه لا يخرج عن سنّة متداولة لها تصوّراتها للمعريف وقوامه الموسوعيّة والأحكام المعياريّة وتقديس الرّجال وتثمين ملكة الحفظ. ولم يدرك العصر نقائص التّعليم الجوهريّة حتّى يراجعها ويلتحق بركب الحضارة. أقصى ما يطمح إليه أن يسيطر على هذا القطاع سيطرة كليّة ويطبق عليه، لأنّه السّاهر عليه المنظّم لدواليبه ويصرف جرايات للقائمين، وهي وظيفة تنظيميّة لا تنكر قيمتها غير أنّها لم تقم على تشوير لواقع التّعليم. وبدا التّنظيم في حدّ ذاته أشبه بالعمويّة في تقديم تصوّر لمراحل الاكتساب وهيكلته والتّأهيل لنيل المعرفة إجازة لا اختباراً.

وبعبارة أخرى لئن عرفت الفترة الحسينيّة بتونس التّنظيمات الحديثة لمؤسسات التّعليم فإنّها لم ترتق نوعياً بالمادّة معرفيّة التي تقدّم إلى المتعلّم، وظلّت تلك المادّة رتيبة تقليديّة لا جديد فيها تعتمد كتباً معروفة هي نفس الكتب التي عرفها إصلاح التّعليم الرّيتونيّ في القرن التّاسع عشر.<sup>2</sup> ولذا لم تتطوّر المؤسسة تطوّراً معرفيّاً بإنتاج ثقافة مستطرفة إلاّ لماماً، وقد لاحظت كلّ التّجارب الإصلاحيّة حول التّعليم خلال البرامج وتشبّتها بما ساد منذ العصر الوسيط ودوّنه ابن خلدون. ويكفي أن نشير إلى أعلام حاولوا النّظر في إصلاح التّعليم الرّيتونيّ ومنهم الشّيخ محمد الطّاهر ابن عاشور ومحمد النّخلي ومحمد الخضر حسين والطّاهر الحدّاد، ثمّ: محمد المختار السّلامي ومحمد العروسي المطوي والهادي حمّو والبشير العربيّ.<sup>3</sup>

<sup>1</sup>-Ladislav Holy, Religion and custom in a Muslum society-The Berti of Sudan-, P.S.U.C, Cambridge, 1993.

وينظر أيضاً: سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثّقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.

<sup>2</sup> - ينظر: نسخة الأمر العليّ المتضمّن لقانون جامع الرّيتونة من الحاضرة أدام الله عمرانه، مطبعة الدّولة التّونسيّة بحاضرتها المحميّة، أواخر 1292 هـ/ 1875م.

<sup>3</sup> - السّلامي (محمد المختار) وحمّو (الهادي) المطوي (محمد العروسي) والعربي (البشير)، التّعليم الرّيتونيّ ووسائل إصلاحه، الشّركة التّونسيّة لفنون الرّسم، تونس، 1953.

## قائمة المصادر والمراجع:

## المخطوطات:

برتقيز (يوسف)، المنن على مختصر القدوري أبي الحسن، مخط د.ك.و بتونس، 14725-14726-14727-14728 ورقم 16652 و 5161.

التواتي (محمد)، غنية الطالب ومنية الراغب، مخطوط د ك و بتونس، 3190.

الغماري (محمد)، شرح مرشدة الغلمان، مخط د.ك.و بتونس، 2581.

## الكتب بالعربية والمعرّبة:

الأندلسي الوزير السراج (محمد بن محمد)، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

برناز (أحمد)، الشهب المخرقة لمن ادعى الاجتهاد لولا انقطاعه من أهل المخرقة، تحقيق وتقديم الطاهر المعموري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1990.

بورديو (بيير)، العنف الرمزي (بحث في أصول علم الاجتماع التريوي)، ترجمة نظير جاهل، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994.

خوجة (حسين)، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق وتقديم للطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس- ليبيا، 1975.

ابن الخوجة (محمد)، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، تحقيق الجيلاني بن الحاج يحيى وحمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1985.

الرعيبي القيرواني المعروف بابن أبي دينار (أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم)، رسالة في الأدب، تحقيق الهادي حمودة الغزي، الأضواء، تونس، 1997.

السعداوي (أحمد)، تونس في القرن السابع عشر وثائق الأوقاف في عهد الدايات والبايات المراديين، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة ووحدة البحث "المدن التاريخية التونسية والمتوسطية"، تونس، 2011.

السعداوي (أحمد)، تونس زمن حسين بن علي وعليّ باشا 1705-1756 وثائق أوقاف العهد الحسيني، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة ومخبر الآثار والعمارة المغربية، تونس، 2015.

سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.

السّلامي (محمد المختار) وحمّو (الهادي) المطوي (محمد العروسي) والعربي (البشير)، التّعليم الرّيتونيّ ووسائل إصلاحه، الشركة التّونسيّة لفنون الرّسم، تونس، 1953.

ابن عاشور (محمد الطّاهر)، أليس الصّبح بقريب: التّعليم العربيّ الإسلاميّ دراسة تاريخيّة وآراء إصلاحيّة، دار سحنون للنّشر والتّوزيع، تونس- دار السلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والترجمة، القاهرة، ط1، 1427 هـ/2006م.

قرين (أرنولد هـ)، العلماء التّونسيّون 1873-1915، ترجمة حفناوي عمّاية وأسماء معلى، دار سحنون للنّشر والتّوزيع، تونس، والمجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة، قرطاج، تونس، ط1، 1995.

بن مامي (محمد الباجي)، مدارس مدينة تونس من العهد الحفصيّ إلى العهد الحسينيّ القرن السّابع إلى القرن الثّالث عشر هجريّ، المعهد الوطني للتراث، تونس، 2006.

مقديش (محمود)، نزهة الأنظار في عجائب التّواريخ والأخبار، تحقيق علي الزّواري ومحمّد محفوظ، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1988.

نسخة الأمر العليّ المتضمّن لقانون جامع الرّيتونة من الحاضرة أدام الله عمرانه، مطبعة الدّولة التّونسيّة بحاضرتها المحميّة، أواخر 1292 هـ/1875م.

التّيّفر (محمد الشّاذلي)، أدباء سالفون القرن الثّاني عشر للهجرة، إعداد وتقديم الطّاهر التّيّفر، دار الغرب الإسلاميّ، تونس، ط1، 2008.

بن يوسف (الصّغبر)، المشرع الملكيّ في سلطنة أولاد عليّ تركي، تقديم وتحقيق أحمد الطّويلي، المطبعة العصريّة، تونس، ط1، 1998، ج1.

المعاجم والبيبليوغرافيا:

بن عبد الله (مصطفى) الشّهير بجاجي خليفة، كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، (د.ت).

الأعمال الجامعيّة المرقونة:

القاسمي (فتحي)، الجدل الدينيّ في تونس (1875-1931) قراءة تحليليّة نقدية، أطروحة دكتورا الدّولة، كلية الآداب والفنون والإنسانيّات، 2005-2006.

الميزوري (العروسي)، التّعليم في تونس منذ قيام الدّولة الحسينيّة إلى انتصاب الحماية، دكتوراه، إشراف وسيلة بلعيد حمدة، جامعة الرّيتونة، المعهد الأعلى لأصول الدّين، 1993/1994.

## المقالات:

السلامي (صدق)، "الباي حسين بن علي ورجال القلم، بين التشريع المذهبي والتوظيف السياسي لبناء الدولة"، مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية (مركز جيل البحث العلمي ببلبنان)، العدد 96، أبريل 2023.

السلامي (صدق)، "مأسسة جامع الزيتونة ونظام التدريس قبل إصلاحات القرن التاسع عشر"، مجلة كراسات افريقية (المعهد العالي للعلوم الإنسانية بجنندوبة)، العدد 2، 2022.

القاسمي (فتحي)، "رسالة نادرة للشيخ محمد بيرم الخامس: الكشف الأبهري في الموازنة بين تعليم المدارس والأزهر"، المجلة التاريخية المغربية، س 19، ع 65-66، أوت 1992.

## باللغة الأجنبية:

-Gilles Deleuze & Felix Guattari, Qu'est-ce que La Philosophie?, Les Editions de Minuit, 1991.

-Ladislav Holy, Religion and custom in a Muslum society-The Berti of Sudan-, P.S.U.C, Cambridge, 1993.

-Jean Moreau, la Pédagogie, Grancher, Paris, 1991.

-Paul Veyne, Comment on écrit l'Histoire suivi de Foucault révolutionne L'Histoire, éds seuil, Paris, 1971-1978.



## الخدمات الصحية: المفهوم والخصائص

### Services de santé : concept et caractéristiques

رشيد بونا/جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب

RACHID BOUNA / UNIVERSITE ABDELMALEK SAADID TETOUAN, MAROC

#### ملخص:

تعد الخدمات الصحية أنها جميع الخدمات التي تقدمها المؤسسات الصحية، سواء الخدمات العلاجية للأفراد، أو الخدمات الوقائية للمجتمع والبيئة، أو الخدمات الإنتاجية مثل الأدوية والمستحضرات الصيدلانية والأجهزة الطبية... بهدف تحسين الصحة الشخصية وتحقيق التطلعات المتعلقة بالخدمة.

الكلمات المفتاحية: جودة الخدمات، الرعاية الصحية.

#### Résume:

Les services de santé sont des services fournis par des établissements de santé, qu'il s'agisse de services thérapeutiques individuels, de services communautaires et de prévention environnementale, ou de services de production tels que des médicaments, produits pharmaceutiques, dispositifs médicaux... en vue d'améliorer la santé personnelle et de répondre aux aspirations de service.

**Mot clé :** Qualité des services, soins de santé.

تمهيد :

إن العلوم الاجتماعية لم تستطع لحد الآن اكتشاف القوانين السببية الثابتة التي تعرفها العلوم الطبيعية، ولم تتمكن من بناء وتكوين القوانين الواضحة التي تفسر الأشياء التي تدرسها تفسيراً منطقياً وعلمياً، وذلك لصعوبة حقولها الدراسية وكثرة العوامل والمتغيرات التي تؤثر فيها ودراستها لجوانب المجتمع المختلفة التي يلعب فيها الإنسان دوراً مهماً في عملية تنظيمها وتحديد قوانينها ونشاطاتها.<sup>1</sup>

88

لا يمكن أن تعزى إنجازات المجتمعات المعاصرة إلى عامل واحد فقط، بل إن مختلف عناصر ومكونات هذه المجتمعات مختلطة ومتكاملة مع بعضها البعض، حيث تعتبر المؤسسات التنظيمية مجتمعا صغيراً وهدفها تحقيق النجاح في مختلف مجالات مراحل النمو والتقدم، وتخصص الموارد المختلفة لتحقيق الأهداف الرئيسية والمعلنة، والتي يعتبر العامل البشري موردها الأساسي.

تعتبر الموارد البشرية أساس التقدم الاجتماعي ومعيار التنمية الاجتماعية، وخاصة في مجال الصحة، ونجد أن العديد من الحكومات والمنظمات لها سياسات خاصة بصحة الأفراد، ومن بين هذه المنظمات منظمة الصحة العالمية، التي تأسست عام 1948، والتي تدعو إلى أولوية الأفراد في الحصول على الرعاية الصحية، أو ما يسمى بالعدالة الصحية، كمطلب أساسي تكفله الأنظمة الحكومية.

يسعى العالم بأجمعه لتحقيق تنمية مستدامة باختلاف مجالاتها سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية، ومما لا شك فيه أن الصحة قطاع أساسي في تنزيل التنمية على أرض الواقع فهي المسؤولة عن حماية المورد البشري من الأمراض والوقاية منها مما ينعكس إيجاباً على حياة الإنسان ويساهم في الرفع من مردوديته، خصوصاً وأن هناك علاقة وطيدة ومتينة بين صحة الإنسان مؤسس التنمية والتنمية كهدف منشود، ومن هذا المنطلق كان الاهتمام العالمي يصب في الانفاق على الأبحاث والدراسات التقنية والصحية والخبرات العلمية وتزويد المؤسسات الصحية بالمعدات الطبية المتطورة من أجل تقديم خدمات صحية للأفراد، على اعتبار هذا الأخير عنصراً أساسياً قادراً على الإسهام في التنمية، وخدمة مجتمعه في جميع المجالات.

يعد مفهوم الخدمة الصحية نابعاً أساساً من المفهوم العام للخدمات ذلك أن الخدمة تتمثل في كونها تتصف بخصائص عديدة تنفرد بها عن السلعة. فمفهوم الخدمة يكمن في أنها منتج غير ملموس تقدم منافع للمستفيدين من هذه الخدمات نتيجة استخدام البشري، ولا ينتج عن ذلك منافع وبناء على ذلك نذكر منها على سبيل المثال للحصر، حيث عرفت الخدمة الصحية على أنها أوجه النشاط غير الملموسة التي تقدم للمريض والتي تهدف أساساً إلى إشباع حاجاته ورغباته كي تهدف إلى تحسين الصحة وزيادة فرص الشفاء والتقليل من القلق الذي يساور المريض والسعي نحو السلامة الجسدية والعقلية والاجتماعية.

<sup>1</sup> Andresk .S ,L .Method and Substantive theory in Max Weber .in British Journal of Sociology XV. 1.1964.

فحسب التاريخ تعد الصحة أشمل من أن تكون معالجة المرض، فهي تمتد لتشمل صحة الجسم وصحة العقل أو ما يسمى بالصحة النفسية والتي تعني " العلاج الوقائي للاضطرابات العقلية مع القدرة على مواجهة الأزمات النفسية التي تطرأ على الفرد"<sup>1</sup> كما يمكن تعريف الخدمة الصحية على أنها جميع الخدمات التي يقدمها القطاع الصحي على مستوى الدولة موجّهة للفرد أو وقائية موجّهة للمجتمع والبيئة أو إنتاجية مثل إنتاج الأدوية والأجهزة الطبية وغيرها بهدف رفع المستوى الصحي للأفراد وعلاجهم ووقايتهم من الأمراض<sup>2</sup>. تناول هذا التعريف الخدمات الصحية بمفهوم واسع وشامل مصنفًا إياها إلى ثلاث مجموعات، خدمات علاجية، خدمات وقائية، وخدمات إنتاجية هدفها رفع المستوى الصحي للأفراد باعتبارها خدمات يقدمها القطاع الصحي.

### أولاً: تعريف الخدمة الصحية

شهد قطاع الخدمات نمواً كبيراً ومنتامياً في السنوات الأخيرة ويحتل حالياً مكانة بارزة في اقتصاد كل دولة والصناعة التي تحتل مكانة بارزة في صناعة الخدمات هي صناعة الخدمات الصحية، وترجع الأهمية التي تحظى بها إلى طبيعة الخدمات التي يقدمها هذا القطاع وعلاقتها المباشرة بصحة أفراد المجتمع، فحياة وصحة أي مجتمع يمكن أن تعكس بوضوح درجة التنمية الاقتصادية، وهذا يدفع البلدان المتعطشة للتقدم والنمو إلى زيادة اهتمامها بالخدمات المقدمة سابقاً المرافق الصحية، وبالتالي أصبح الاهتمام بالخدمات الصحية الآن مهم للغاية لأنها ترتبط بكل جانب من جوانب الأنشطة البشرية. وذلك لأن الاهتمام بها أصبح ظاهرة عالمية.

لقد تعددت التعاريف المقدمة من قبل الباحثين للخدمة الصحية، وللإشارة فإن الخدمة الصحية تشترك في عدة خصائص مع الخدمات العامة، لكن لها عدة خصائص تميزها عن بقية الخدمات، وقد وردت عدة تعريفات للخدمة الصحية أغلبيتها لا يخرج عن مضمون الخدمة الواردة سابقاً، ومن بين التعاريف الواردة للخدمة الصحية ما يلي:

- أنها: "كل نشاط يخلق قيمة ويعطي إضافة إيجابية للعميل في وقت ومكان محدد ويحدث تغيير إيجابي مرغوب لهذا العميل."<sup>3</sup>
- أنها: "كل نشاط أو منفعة مقدمة من طرف إلى طرف آخر وعادة ما تتعلق مراحل إنتاج الخدمة بمنتجات مادية، لكن النتيجة النهائية للخدمة تكون غير ملموسة."<sup>4</sup>

<sup>1</sup> صالح حسن الدهراوي، مبادئ الصحة النفسية، دار وائل، الأردن 2005، ص 26.

<sup>2</sup> عدمان مزروق واقع جودة الخدمات في المؤسسات الصحية العمومية في الجزائر العصمة أطروحة مقدمة للحصول على شهادة الدكتوراه، جامعة الجزائر 2007-2008 ص 19.

<sup>3</sup> Jochen Wirtz et autrre : Marketing de services, 6eme édition, Pearson éducation, France, 2009, P 12. 2 Idem, P 12.

<sup>4</sup> يوسف حسين عاشور وطلال، عثمان العبدلة: قياس جودة الخدمات التعليمية في الدراسات العليا (حالة برنامج MBA في الجامعة السالمية بغزة)، مجلة جامعة الأقصى، فلسطين، المجلد 11، العدد 01، 2007، ص 102

■ أنها: "تصرفات أو أنشطة أداء تقدم من طرف إلى طرف آخر، وهذه الأنشطة غير ملموسة والتي يترتب عنها نقل ملكية أي شيء، كما أن تقديم الخدمة قد يكون مرتبطاً أو غير مرتبط بمنتج مادي ملموس."<sup>1</sup>

■ تعرف الخدمة الصحية على أنها: "العلاج المقدم للمرضى سواء كان تشخيصاً أو إرشاداً أو تدخلاً طبياً ينتج عنه رضا أو قبول وانتفاع من قبل المرضى وبما يؤول لأن يكون بحالة صحية أفضل."<sup>2</sup>

ونلاحظ أن هذا التعريف الأخير يشير إلى ثلاثة أبعاد للخدمة المقدمة في المؤسسات الصحية، وهي:

● **الصفة المميزة للخدمة:** وترتبط أساساً بجوهر الخدمة الصحية المقدمة ذاتها والتي تتكون من عدة إجراءات مختلفة تشخيصية وعلاجية.

● **المنافع المرجوة من الخدمة:** وتتمثل بالعناصر المختلفة التي يحصل عليها المريض أو غيره من المستجوبين للمؤسسة الصحية لمقابلة احتياجاتهم الصحية، والتي يطلق عليها في بعض الأحيان بحزمة الرضا المتحقق للمستفيد من الخدمة، والمتضمنة الإدراك الحقيقي لكفاءة العمل المؤدى بشكله الملموس وغير الملموس وبما يؤدي إلى شعوره بالاطمئنان لذلك العمل المؤدى.

● **الخدمات الساندة:** وتتمثل بكافة العناصر المضافة التي تقدمها المؤسسة الصحية إلى جوهر الخدمة الصحية المقدمة للمريض، وتتضمن نظام حجز المواعيد، خدمات الاتصال التليفونية وكثير من الأمثلة الأخرى.

كما تعرف الخدمة الصحية أيضاً بأنها: "مجموعة من الوظائف التي تعمل على إشباع الحاجات الانسانية المرتبطة بالبقاء الاستمرار بشكل مباشر، وترتبط بالوظائف الأخرى للمجتمع كالوظيفة الاقتصادية، التعليمية، الاجتماعية وغيرها بشكل غير مباشر بحيث تعطي للمريض القدرة على التكيف البيئي عن طريق توفير الدعم لقدراته البيئية، الحسية والنفسية بما يمكنه من تحقيق الأداء المطلوب."<sup>3</sup>

وقد عرفت الخدمة الصحية بأنها: "جميع النشاطات والعمليات التي تحقق الرضا والقبول لدى المستفيد (المريض) مقابل ثمن دون أن يتضمن تقديمها أي خطأ."<sup>4</sup>

من خلال التعريف تتحدد بعض المؤشرات هي:

➤ **الخدمة الصحية عليها إشباع حاجات ورغبات الزبائن والتي تكمن في إبعاد التوتر الذي يشعرون به عنهم**

<sup>1</sup> محمود جاسم الصميدعي وردينة عثمان يوسف، تسويق الخدمات، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2010، ص 24

<sup>2</sup> ثامر ياسر البكري، تسويق الخدمات الصحية، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2005، ص 168

<sup>3</sup> ألاء نبيل عبد الرزاق: استخدام تقانة المعلومات من أجل ضمان جودة الخدمة الصحية حالة دراسية في عينة من مستشفيات مدينة بغداد،

مجلة الإدارة والاقتصاد، العراق، العدد 90، 2011، ص 281

<sup>4</sup> نفس المرجع السابق ص 281

➤ تتضمن الخدمة الصحية عناصر ملموسة كالدواء والمستلزمات العلاجية كالكراسي المتحركة، وأخرى غير ملموسة مثل الخدمات التشخيصية.<sup>1</sup>

أخيراً، يمكن أن يشمل التعريف التالي للخدمات الصحية أنها جميع الخدمات التي تقدمها المؤسسات الصحية، سواء الخدمات العلاجية للأفراد، أو الخدمات الوقائية للمجتمع والبيئة، أو الخدمات الإنتاجية مثل الأدوية والمستحضرات الصيدلانية والأجهزة الطبية... بهدف تحسين الصحة الشخصية وتحقيق التطلعات المتعلقة بالخدمة.

### ثانياً: الخصائص المميزة للخدمات الصحية<sup>2</sup>

تعتبر جودة الخدمات الصحية في المؤسسات الصحية أسلوباً ومنهجاً سليماً للارتقاء وتقديم خدمات صحية متميزة وذلك من أجل تلبية متطلبات المرضى وكسب رضاهم والاستفادة من الموارد المتاحة على أكمل وجه، وهذا نتيجة لما عرفته السنوات الأخيرة من الزيادة الكبيرة والإقبال المتزايد بصورة مستمرة في أعداد المرضى المترددين على المؤسسات الصحية وذلك راجع لزيادة انتشار الوعي الصحي لدى أفراد المجتمع وكذلك الزيادة في الأمراض المزمنة والأوبئة، ولقد رافقت هذه الزيادة في عدد المرضى ظهور عدة مظاهر ومشاكل جديدة، كوجود صفوف طويلة من المرضى أمام مراكز الخدمة وطول زمن انتظار المرضى الذي قد يؤدي أحياناً إلى تدهور حالتهم الصحية أكثر، والتي لها تأثير مباشر على جودة الخدمة الصحية المقدمة.

تتجسد الخصائص المميزة للخدمة الصحية المقدمة من قبل المؤسسات الصحية إلى خصوصية تلك الخدمات، وبالتالي انعكاس ذلك على الأسلوب والعمل الإداري الذي يمكن أن تقدم به إلى المستفيدين، ويمكن تحديد الخصائص بالآتي:

➤ **عدم ملموسية الخدمات الصحية في المؤسسات الصحية** حيث لا يتضح تماماً ما الذي دفع المريض قيمته، بما أن عملية الشفاء تقتضي بعض الوقت، وتبلور آراء المرضى حول جودة الرعاية التي تلقوها طوال هذا الوقت من جهة، ومن جهة أخرى لا يمكن اختبار الرعاية قبل الاقتناع بتلقمها.

➤ **التلازم (تزامن الإنتاج والاستهلاك)** كون هذه المؤسسات قطاعاً خدماتياً فإنها تنتج الخدمة وتستهلك في آن واحد ويعكس هذا أن الخدمة الصحية ليست منتجاً يركب ويخزن ثم يباع فيما بعد، ومن سلبيات هذا التزامن في الإنتاج والاستهلاك التحدي الذي يشكله ضبط الجودة، أو ضمان فعالية الخدمة، وبسبب خاصية التزامن أيضاً لا يمكن استرجاع خدمة قدمت بجودة متدنية واستبدالها، حتى لو تم تصحيح العملية التي أنتجتها وقدمت بجودة عالية لمرضى آخرين.

➤ **عدم قابلية الخدمة الصحية: تصمم المؤسسات الصحية خدماتها لتقدمها بقدرة وإمكانية معينة في فترة زمنية معينة** وإذا لم تستخدم هذه الطاقة في فترة محددة ستهدر هذه الخدمة، فمثال إذا كان بأحد المستشفيات خمس عشرة غرفة

<sup>1</sup> سحر أحمد كرجي العزاوي الابتكار التسويقي وعلاقته بجودة الخدمة الصحية في القطاع الحكومي دراسة في الشركة العامة لتسويق الأدوية والمستلزمات العامة، مجلة الإدارة والاقتصاد، العراق، العدد 76، 2009، ص 131.

<sup>2</sup> ردينة عثمان يوسف، التسويق الصحي والاجتماعي، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2008، ص 101.

عمليات مزودة بطاقم جراحي متكامل وجاهز للعمل على نحو ملائم وسليم ملء جميع الأوقات أو لو تم هدر جزء كبير من الوقت بين الحالات فإن جزءاً من القدرة أو الإمكانية المتاحة قد تُفقد.

➤ مشاركة المريض في إجراءات الخدمة: يعد المريض (أو حالاتهم المرضية) الذين يتلقون الرعاية مدخلات الخدمة، أما حالتهم بعد التشخيص والعلاج فهي المخرجات، ومن ثم يتفاعل المريض والمؤسسة الصحية من خلال تقديم الرعاية.

➤ الاختلاف وعدم التجانس (التباين): تتصف الخدمات الصحية بشكل خاص بالتباين وعدم التماثل لأنها تعتمد على مهارة وأداء سلوك مقدم الخدمة والزمان والمكان وعلى المعلومات التي يقدمها المريض لمقدم الخدمة الصحية، فالمريض يختلف أيضاً من حيث المزاج والسلوك ومستوى الاستجابة والتفاعل، فقد يعالج الطبيب مرضاه بطرق مختلفة وقد لا يقدم نفس المستوى من الخدمات وهذا يعود إلى مدى استجابة المريض للطبيب وتعاونه معه وقت تقديم الخدمة، كما أن حالة الطبيب (متعب أو مرتاح، سعيد أو حزين) أثر على الاختلاف وتباين الخدمة.

تعد الخصائص السابقة خصائص تشترك فيها الخدمة الصحية مع باقي الخدمات، لكن هناك مجموعة من الخصائص تميز الخدمات الصحية عن باقي الخدمات، هي<sup>1</sup>:

- تتميز الخدمات الصحية بكونها عامة للجمهور، وتسعى من تقديمها إلى تحقيق منفعة عامة ولمختلف الجهات والاطراف المستفيدة منها سواء كانوا أفراداً أو مؤسسات.
- تتميز الخدمات الصحية بارتباطها بحياة الانسان وشفائه وليس بأي شيء مادي آخر يمكن عادة تعويضه وإعادة شرائه، ولذلك فإن معيارية الأداء للخدمات الصحية تكون عالية وتخضع إلى رقابة إدارية وطبية واضحة.
- تؤثر القوانين والأنظمة الحكومية على عمل المؤسسات الصحية عامة والمستشفيات خاصة، وعلى وجه التحديد إذا كانت تابعة للدولة أو للقطاع الخاص وذلك فيما يتعلق بتحديد منجز عملها والخدمات الطبية التي يقدمها والكيفية التي يتم بها ذلك .
- في المؤسسات الصحية تكون قوة اتخاذ القرار موزعة إلى حد ما بين الإدارة ومجموعة الأطباء بينما في مؤسسات الأعمال عموماً تكون قوة اتخاذ القرار بيد شخص واحد أو مجموعة أشخاص يمثلون قمة الإدارة.
- وجوب الاتصال المباشر بين المؤسسة الصحية والمستشفيات بصفة خاصة والمستفيد من الخدمة الصحية، إذ أن الخدمة الصحية لا يمكن تقديمها في الغالب إلا بحضور المريض نفسه للفحص والتشخيص والعلاج وإجراء التحاليل.
- في المؤسسات الصحية يكون من الصعب تطبيق المعايير نفسها والمفاهيم الاقتصادية التي تطبق في خدمات أخرى على عملها، وذلك راجع لارتباط الخدمة الصحية بالإنسان.

<sup>1</sup> ثامر ياسر البكري: إدارة المستشفيات، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2005، ص 59-60.

- تتطلب الخدمة الصحية الانتشار المكاني والزمني وذلك لأنها تتميز في الغالب بالإلحاح والسرعة في أدائها.
  - صعوبة تحديد وتقييم وقياس جودة الخدمة.
  - تتكون الخدمة الصحية من عناصر يكمل بعضها البعض.
- تتميز الخدمات الصحية بصفات اقتصادية عديدة وفي عدة جوانب هي:<sup>1</sup>

- جانب الطلب يتمثل في:

■ الطلب على الخدمات الصحية يعد طلب مشتق\* فإذا اعتبرنا الخدمة الصحية مدخلات لإنتاج الصحة، يكون الطلب على الخدمات الصحية طلب مشتق من الطلب على الصحة، فالمريض يستثمر في رعاية الفم والاسنان في الحاضر من أجل الحصول على أسنان سليمة في المستقبل.

■ الخدمات الصحية تعد إنفاقاً استهلاكياً: وكمثال على السلع الاستهلاكية\*\* شراء المريض للأدوية واستهلاكها يعطي إشباعاً مباشراً بينما شراء جهاز لقياس السكر أو جهاز قياس الضغط الدموي يقدم خدمات على مدى فترة زمنية ممتدة.

- جانب العرض يتمثل في:<sup>2</sup>

■ تخضع أسواق الخدمات الصحية إلى جانب كبير من التدخل والتنظيم الحكومي ويتعلق الأمر بتحديد منهج عملها والقواعد المهنية في مجال تقديم الخدمات الصحية كما يتسع هذا التدخل لتقوم بالإنتاج المباشر لهذه الخدمات من خلال ملكيتها أغلب وحدات إنتاج الخدمة.

■ انخفاض مرونة عرض الخدمات الصحية في الأجل القصير راجع إلى بناء المستشفيات وتجهيزها بالإضافة إلى تدريب الأطباء والمهنيين يحتاج إلى سنوات عديدة ومن ثم فإن العرض غير المرن لبعض مدخلات إنتاج الخدمات الصحية في الأجل القصير يجعل من هذه الخدمات منتج نهائي غير مرن في الأجل القصير.

إن استخدام عنصر العمل من الخصائص العامة التي تميز الخدمة الصحية يعتمد على العديد من الموارد البشرية ذات التخصص متفاوت والذي يبين مدى التكامل ودرجة الاعتماد بينها، كالتبيب المتخصص والطبيب العام والممرض.<sup>3</sup>

وتعتبر خطوه الوقوف على الدراسات السابقة خطوة لها من الأهمية ما هو بالغ من خلالها سنتمكن من تسطير الهدف الموضوعي الذي توعدنا به سابقاً هذا الهدف المتجلي في خدمة البحث العلمي وإغناء الخزانة العلمية، وفي الحقيقة أن هذه

<sup>1</sup> طلعت المداش إبراهيم: اقتصاديات الخدمات الصحية، مكتبة القدس، مصر، الطبعة الثانية، 2006، ص32-33.

<sup>2</sup> ديون عبد القادر، دور التحسين المستمر في تفعيل جودة الخدمات الصحية حالة المؤسسة الاستشفائية محمد بوضياف ورقلة، مجلة الباحث، ورقلة، الجزائر، العدد 11، 2012، ص217.

<sup>3</sup> ديون عبد القادر، دور التحسين المستمر في تفعيل جودة الخدمات الصحية حالة المؤسسة الاستشفائية محمد بوضياف ورقلة، مجلة الباحث، ورقلة، الجزائر، العدد 11، 2012، ص217.

الدراسات بمثابة موجه لنا إذ مكنتنا من الاطلاع على بعض الأعمال السابقة وما توصلت إليه وكذا الخطوات التي اتبعتها الباحثون بغية الحصول على المعطيات والمعلومات.

مفهوم الدراسات السابقة" يراد به مراجعة الدراسات السابقة التي تناولت الموضوع أو بعض جوانبه حتى يتسنى للباحث أن يبدأ مما انتهى غيره وأن يوضح مدى الاختلاف والتشابه بين دراسته وبين من سبقه "1.

وبتالي الحديث عن الدراسات السابقة نجد أن هناك مدرستين في مناهج البحث بهما وعن طريقتيهما يمكن توظيف هذه الدراسات.

#### • المدرسة الأولى:

ترى هذه المدرسة أنه يجب إجراء تحليل نقدي للدراسات السابقة بعد تصنيفها وفق محاور معينة وعرض ملخص لها يبرز الباحث من خلاله موقع بحثه منها.

#### • المدرسة الثانية:

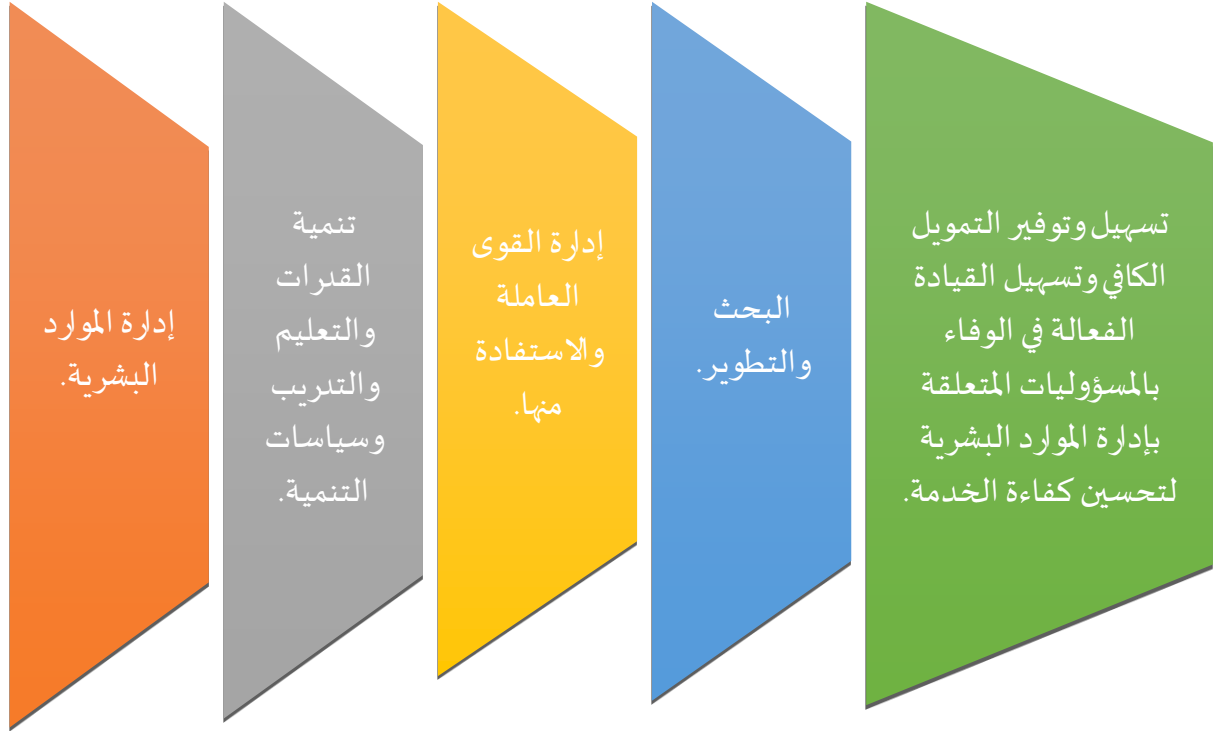
ترى أنه يجب توظيف هذه الدراسات في مراحل الدراسة فهناك دراسات يكون موقعها المقدمة يستدل بها على ضرورة القيام ببحثه وهناك دراسة توظف في الإطار النظري للبحث، وأخرى يستشهد بها عند مناقشة النتائج وتفسيرها.

ولتنظيم عملنا في هذه المرحلة، فقد اطلعنا بالشكل الكافي على الدراسات السابقة التي حاولت مقارنة الموضوع أداء الخدمات الصحية وأخذنا ندون بعض المعطيات مع توثيقها بعد أن جعلنا لكل دراسة بطاقة خاصة بها كتبت في جانبها المعلومات المتعلقة بالمؤلف وعنوان كتابه وسنة نشره وغير ذلك من الترتيبات التي ستتم العودة إليها عند الحاجة، كما أننا أخذنا ندون العناصر الأساسية ذات علاقة بمشكلة البحث وأهم الاستنتاجات التي خلصت إليها الدراسة.

والحال أنها قد اهتمت العديد من الدراسات بموضوع للخدمات الصحية وتناولته من زوايا مختلفة إلا أن الدراسات تكاد تقل بخصوص دراسي الأداء الوظيفي للخدمات الصحية للمركز الاستشفائي الجهوي مولاي الحسن بن المهدي بإقليم العيون الذي نصب اهتمامنا حوله ما عدا كتابات بعض المهووبين حول الموضوع، ولكن القاعدة تحتم عدم اعتماد هذه الكتابات لعدم قيامها على أي منطق أو أساس علمي.

من أجل معالجة أزمة الموارد البشرية في إطار خطة التنمية الوطنية والخطة الاستراتيجية للصحة، واجهت وزارة الصحة والرعاية الاجتماعية أزمة في الموارد البشرية وخطة الاختيار الصحية الاستراتيجية بين عامي 2008 و2012، من أجل تقديم خدمات صحية عالية الجودة، تركز الخطة على تحسين المجالات الاستراتيجية التالية:

<sup>1</sup> رحيم يونس كرو العزاوي، مقدمة في منهج البحث العلمي، دار عجلة، عمان الأردن، الكعبة الأولى، 2008 ص46

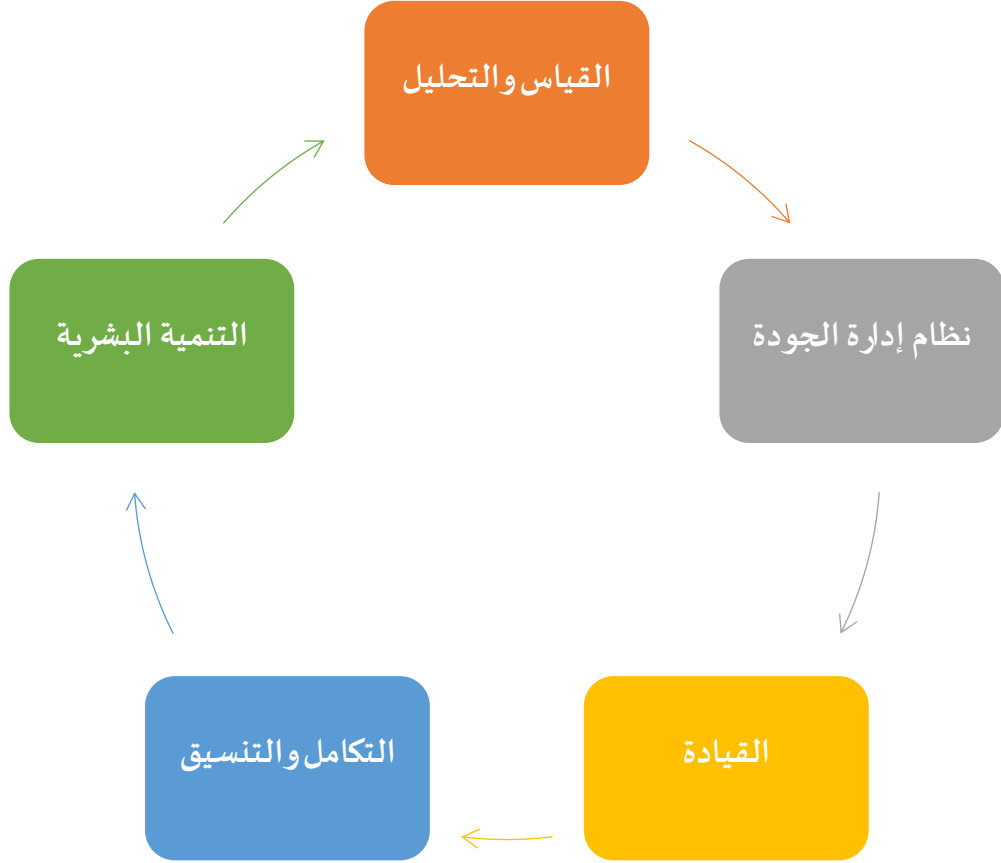


يهدف البرنامج إلى زيادة إنتاجية العاملين في مجال الرعاية الصحية لتقديم خدمات عالية الجودة.<sup>1</sup>

إن محددات جودة خدمات الرعاية الصحية الأولية تهدف إلى التعرف على محددات جودة الرعاية الصحية الأولية من وجهة نظر المسؤولين الحكوميين ومقدمي الخدمات الصحية، بما في ذلك الأطباء والممرضات، في مدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية. بالإضافة إلى الملاحظات الدقيقة للبيئة المحيطة من خلال الدراسات الميدانية، تم فحص القضايا المتعلقة بمبادرات تنفيذ الجودة في القسم. تستند هذه المقابلات على أسئلة مفتوحة وتركز على أهم العوامل التي تؤثر على جودة الرعاية الصحية الأولية، وأهم مبادرات التطوير والتحسين في هذا القطاع. توصلت الدراسة إلى ستة محددات لجودة التطبيق في القطاع وهي:

<sup>1</sup> Ministry of Health and Social welfare, Human resource for health, strategic plan 2008- 2013, Ministry of Health and Social welfare, Dar Es salaam, January, 2008.

## ○ الثقافة التنظيمية:



تتضمن كل هذه المحددات بعض العناصر الفرعية التي تمثل العوامل التي تؤثر على جودة الرعاية الصحية الأولية، ويتم تحديث بعض عناصر نجاح تطبيق الجودة في قطاع الصحة بناءً على نتائج هذه الدراسة<sup>1</sup>.

## خلاصة:

قد يكون من الصعب قياس الخدمات الصحية وتحديد الأسباب الجذرية للعيوب وأوجه القصور في الجودة، بهدف كسب رضا المريض وثقته أولاً لأنه يعتبر المعيار الأساسي للحكم على جودة الخدمات المقدمة، ولكي تحقق المؤسسة الصحية مستوى الجودة المطلوب كان لزاماً عليها الاعتماد على خصائص علمية تبني من خلالها استراتيجية عمل بين جميع الفاعلين داخل التنظيم واعتماد جميع المقترحات المبنية على أسس علمية.

<sup>1</sup> حنان عبد الرحيم الأحمدى، محددات جودة خدمات الرعاية الصحية الأولية، مجلة الإدارة العامة، المجلد 42 العدد 3، 2006، ص 46

## قائمة المراجع:

1. سحر أحمد كرجي العزاوي الابتكار التسويقي وعلاقته بجودة الخدمة الصحية في القطاع الحكومي دراسة في الشركة العامة لتسويق الادوية والمستلزمات العامة(، مجلة الإدارة والاقتصاد، العراق، العدد 76، 2009.
2. صالح حسن الدهراوي، مبادئ الصحة النفسية، دار وائل، الأردن 2005.
3. عدمان مرزوق و اقع جودة الخدمات في المؤسسات الصحية العمومية في الجزائر العصمة أطروحة مقدمة للحصول على شهادة الدكتوراه، جامعة الجزائر 2007-2008.
4. يوسف حسين عاشور وطلال، عثمان العبادلة: قياس جودة الخدمات التعليمية في الدراسات العليا (حالة برنامج MBA في الجامعة السالمية بغزة)، مجلة جامعة الأقصى، فلسطين، المجلد 11، العدد 01، 2007.
5. محمود جاسم الصميدعي وردينة عثمان يوسف، تسويق الخدمات، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2010.
6. ثامر ياسر البكري، تسويق الخدمات الصحية، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2005.
7. ألاء نبيل عبد الرزاق: استخدام تقانة المعلومات من أجل ضمان جودة الخدمة الصحية حالة دراسية في عينة من مستشفيات مدينة بغداد، مجلة الإدارة والاقتصاد، العراق، العدد 90، 2011.
8. ثامر ياسر البكري: إدارة المستشفيات، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2005.
9. Jochen Wirtz et auttre : Marketing de services, 6eme édition, Pearson éducation, France, 2009.





DOI Prefix:10.33685/1316

جميع الحقوق محفوظة © لمركز جيل البحث العلمي